أثر الأوقاف على الحياة الدينية والاجتماعية في مكة والمدينة في العهد المملوكي

د . أحمد هاشم بدرشيني
أستاذ مساعد في جامعة طيبة بالمدينة المنورة

تمهيد

لم تكن رعاية سلاطين المماليك للحرمين الشريفين مقصورة على العناية بالمقدسات الإسلامية وعمارتها ، ودعم الأمن والاستقرار ، ورفع الظلم عن كاهل السكان ، بل إنها تعدّت ذلك لتشمل أيضاً أوجه الحياة المختلفة .

ولما كان الوقف في الإسلام من رسالته تحقيق التكافل بين المسلمين ، فقد امتد أثره ليطبع الحياة العامة في المجتمع الإسلامي بطابع البر والخير ، فهو صدقة جارية ، تنبع من قلب مليء بالإيمان ، ورغبة في المثوبة والرضوان من الله سبحانه وتعالى .

وإذا كان الشعور الديني العميق بالتعاطف مع المسلمين عامة دافعاً إلى التنافس في قربة الوقف ، فلا شك أن نصيب الحرمين الشريفين وحظ المدينتين المقدستين ، سيكون الأوفر والأوفى من هذه الأوقاف ، وهذا سرّ كثرة ما وقف وحدّد صرف ريعه على أوجه الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، وكان له أثره الواضح على قاطني مكة والمدينة ، ومن جاء إليهما مجاوراً أو مقيماً أو حاجّاً أومعتمرا .

وسيدرس هذا البحث آثار الأوقاف على الحياة العامة في المدينتين المقدستين ، بما يبرز ألواناً من الحضارة الإسلامية في ذلك العصر ، ويعتمد على وثائق تمد

الدارسين بمعلومات قيمة في هذا المجال ، لم يرد لها ذكر في المصادر والمراجع المطبوعة التي عنيت بهذا الموضوع .

أولاً : أثر الأوقاف على الحياة الدينية :

أ - الشعور الديني :

للشعور الديني أهمية كبيرة في حفز المسلمين على الوقف ، فعلى أساس من الأثر العميق للدين في النفوس كثرت الأوقاف وازدهرت في العصر المملوكي ، وتسابق السلاطين والأمراء والأعيان في الوقف على مصالح الحرمين الشريفين ، وعلى أهالي المدينتين المقدستين ، ومن يجيء إليهما من مختلف الجنسيات والألوان ، كما تنطق بذلك معظم وثائق الوقف في تلك الفترة[(١)] ، وهذا لا ينفي الاهتمامات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للواقفين .

وتظهر أهمية الشعور الديني واضحة في افتتاحية معظم وثائق الوقف ، من ذلك ما جاء في افتتاحية حجة وقف السلطان قلاوون الصالحي (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م) ونصه : « ... بسم الله الرحمن الرحيم ... قابل الصدقات ، وفاتح أبواب الرحمة ... أولئك الذين وفقهم لمرضاته مولاهم ، وحقق لهم الأمان ، لما وهبه لهم من نعمه المترادفات ، لقد سعدوا في دنياهم وأخراهم ، بما حصل لهم من أجور صدقاتهم ... وعد المتصدق بصدقته استمرار أجوره حال حياته وبعد الممات ، فأخبرنا نبينا محمد المصطفى المخصوص بأطيب السلام وأفضل الصلوات ، أن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث ، وعدّ منها : الصدقة الجارية ، وحث على الخير وتوخيه ، وأخبر أن الله ﷻ في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، في السكون والحركات ... فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار ، وراقبه مراقبة العالم بسره ونجواه في الإيراد والإصدار ، وأقرضه أحسن القروض على حسب الإمكان والافتداء وانتهز الفرصة بالاستباق ، وأحرز

---

(١) منها : حجة وقف السلطان حسن ، رقم الوثيقة (٤٢) ، دار الوثائق ، وحجة وقف برسباي ، رقم الوثيقة (٨٨٠ق) أوقاف ، وحجة وقف الغوري ، رقم (٨٨٣ق) ورقم (٨٨٢ق) وزارة الأوقاف .

باغتنام أجرها قصد السباق ، فساعد الفقير المسلم على إزالة ألمه ومداواة سقمه ، تنجيه غداً من عذاب ربه الخلاق ، ورجا أن تكون له بها عند اللّه الرتبة العظمى ، والقربة التي لا يخاف بأجرها ظلماً ولا هضماً ، والحسنة التي لا تبقي لذنبه غماً ... »[١] .

ويدل على قوة هذا الشعور الخيّر ، كثرة الأوقاف على مصالح الحرمين الشريفين وأهاليهما ، وإنشاء المساجد والمدارس ، والأربطة لإقامة الشعائر الدينية ، والدفاع عن الإسلام ، وتسهيل تأدية فريضة الحج ، ولا سيما لغير القادرين ، فاشترط كثير من الواقفين أن يصرف ريع أوقافهم أو جزء منه في مساعدة غير القادرين لأداء فريضة الحج ، مع علمهم أن الحج لم يفرض إلا على المستطيع ، لقوله تعالى : ﴿ وللّه على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾[٢] ، إلا أن قوة الشعور الديني في هذا العصر جعلت الكثيرين يتوقون إلى تأدية فريضة الحج ، ووجد الواقفون أن في إعانتهم على ذلك وجها من وجوه البر التي ينفقون فيها صدقاتهم من ريع أوقافهم . ومن حجج الوقف في هذا الصدد حجة وقف الجمالي أبي المحاسن يوسف ، الذي حدد صرف عشرين ألف درهم من ريع وقفه ، تصرف لرجلين ممن لم يحجا حجة الإسلام ، ليستعين كل منهما بالمبلغ المذكور في أداء حجته وعمرته ، وقد اشترط الواقف في صفات هذين الرجلين أن يكون كل منهما حسن السيرة والسريرة من أهل القرآن وطلب العلم الشريف وأرباب البيوت العاجزين عن القيام بتأدية فريضة الحج ، ويقدم لمن يظهر احتياجه لذلك

---

(١) وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون الصالحي ، رقم الوثيقة (١٠١٠) أوقاف ، نشرها محمد محمد أمين في ملاحق كتاب تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب الحلبي ، ج١ ص ٣٣٠-٣٣٣ ، من مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٦م .انظر : افتتاحيات وثائق الوقف المختلفة : سلاطين ، أمراء ، أعيان ، على مصالح الحرمين وأهاليهما ، مقدمة حجة وقف السلطان حسن ، رقم الوثيقة ، (٨٨) أوقاف ، افتتاحية حجة وقف السلطان قانصوه الغوري ، رقم الوثيقة (٨٨٤ق) وزارة الأوقاف ، وافتتاحية حجة وقف السيفي أيتمش بن عبد اللّه الظاهري الأتابكي ، رقم الوثيقة (١١٤٣ق) أوقاف ، مقدمة حجة وقف قراقجا الحسني ، رقم الوثيقة ، (٩٢) أوقاف .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٩٧) .

وشوقه إليه ، لكل رجل عشرة آلاف درهم(١) ، كما حدد الواقف صرف أجرة عشرين جملاً تجهز لحمل المنقطعين العاجزين عن الاستئجار ، وإطعامهم حتى وصولهم إلى بلادهم(٢) .

واشترط بعض الواقفين أن يصرف جزء من ريع وقفهم في كل سنة في مساعدة الذين يخرجون لتأدية فريضة الحج ، ويشرفون على الهلاك ، إما لضعفهم أو لفقرهم ، سواء في طريق الذهاب أو العودة ، ومن ذلك : حجة وقف السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ، والمؤرخة في ٢٦ من ربيع الثاني ، سنة (٧٦٢هـ/١٣٦٠م) ، والتي حددت ضمن أوجه الصرف بها ، على الفقراء والمنقطعين من الحجاج بمكة ، الذين ليس لهم زاد ولا راحلة ، وأن يصرف لكل منهم ما يحتاج إليه حتى وصوله إلى وطنه(٣) ، وكذلك حجة وقف السلطان الناصر فرج بن برقوق ، إذ قرر الواقف الصرف على المنقطعين من الحجاج في أجرة الحمل ، والإطعام ، وسقاية الماء ، في طوال الطريق ذهاباً وإياباً حتى وصولهم إلى بلادهم(٤) ، وقد حددت حجة وقف السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ضمن أوجه صرفها : تجهيز المنقطعين بالمدينتين المقدستين برسم الزاد والراحلة ، حتى وصولهم إلى ديارهم(٥) .

ولتسهيل أداء فريضة الحج ، ومساعدة المشاة من الحجاج ، وتقديم ما يحتاجون إليه من الماء ذهابا وإيابا ، وقف السلطان برقوق (٧٩٢- ٨٠١هـ/١٣٧٩-١٣٨٨م) ناحية بهتيت على سحابة تسير مع ركب الحاج المتوجه إلى مكة في كل سنة لتحقيق هذا الغرض .

---

(١) حجة وقف الجمالي أبي المحاسن يوسف ، ناظر الخواص الشريفة ، المؤرخة في ٢ من ذي القعدة سنة ٨٤٩هـ رقم الوثيقة (١٠٥) رقم المحفظة (١٦) ، دار الوثائق ، سطر ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ . انظر : جدول فهرس الوثائق في نهاية الدراسة .

(٢) الوثيقة السابقة ، سطر ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ . .

(٣) حجة وقف السلطان حسن ، رقم الوثيقة (٤٢) ، دار الوثائق ، سطر ٤٥ ، ٤٦ . انظر : جدول فهرس الوثائق في نهاية الدراسة .

(٤) حجة وقف السلطان فرج بن برقوق ، المؤرخة في ٧ من محرم سنة ٨١٢هـ ، رقم الوثيقة (٦٦) ، محفظة (١١) ، دار الوثائق ، سطر ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ . انظر : جدول فهرس الوثائق في نهاية الدراسة .

(٥) حجة وقف الملك الناصر محمد بن قلاوون ، رقم الوثيقة (٣٠) ، دار الوثائق القومية ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

ب – الوظائف الدينية :

تشير وثائق الوقف في العصر المملوكي إلى حرص سلاطين المماليك على عمارة بيوت الله بصفة عامة ، والعناية بمصالح الحرمين الشريفين بصفة خاصة ، واهتمامهم بتنظيماتها الإدارية ووظائفها الدينية .

١ ـ القضاء في الحرمين الشريفين :

يأتي في مقدمة الوظائف الدينية منصب القاضي ، ويندرج في معظم الحالات ضمن الوظائف الدينية المرتبطة بالحرمين الشريفين ، لأن القاضي بجانب وظيفة القضاء ، كثيراً ما كان يجمع وظائف أخرى مرتبطة بالحرم ، ويعتبر منصب القضاء من أجلّ الوظائف الدينية في المجتمع الإسلامي ، إذ إن وظيفة القاضي هي الوظيفة الثانية في الوظائف الإدارية ، ولابد أن يكون القاضي من كبار العلماء والفقهاء .

وكان القضاء في مكة في بداية العصر المملوكي على المذهب الشافعي ، وهو الذي كان سائداً ، حتى استحدث عام (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) في مصر ولأول مرة تعيين أربعة قضاة على المذاهب الأربعة (الشافعي ، والحنفي ، والمالكي ، والحنبلي)[(١)] ، ويرأسهم القاضي الشافعي ، الذي كان قاضي القضاة ؛ لأن الدولة المملوكية تتبع المذهب الشافعي ، ثم ظهرت وظيفة قاضي القضاة على المذاهب الأربعة في مصر[(٢)] ، وظل القاضي شافعيّاً في مكة حتى عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م[(٣)] ، حيث استحدثت وظيفة القاضي الحنفي ، ثم القاضي المالكي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[(٤)] ، أَمَّا القاضي الحنبلي فكان آخرهم في عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م[(٥)] ، وهناك ظاهرة ملحوظة ارتبطت بمنصب القضاء في مكة وهي نظام الوراثة في

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٣٩ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٣٢١ ، الطبري ، الأرج المسكي ، ص ٤٨ .

(٢) أشارت المصادر التاريخية إلى هذه الوظيفة وهي قاضي القضاة الحنفي وهو (سراج الدين عمر الهندي) في عهد السلطان (الأشرف شعبان) . انظر : المقريزي ، السلوك ، ج٣ ق ١ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج١ ، ص ١٩٣ .

(٣) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١٧٠ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٤٣٧ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ج١ ، ص ٦٨٧ .

(٤) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٣٣٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٣ ، ص ١١٥٦ .

(٥) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص ٥٤٦ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٤ ، ص ٣٣٣ .

الأسرة الواحدة ، و على الرغم من أن السلطان المملوكي هو الذي كان يصدر أمر تعيين القاضي ، فإن هذا المنصب بمكة كان لا يتعدى بعض البيوتات العريقة ، فكان معظم القضاة من الطبريين والظهيريين والنويريين والفاسيين ، ويكاد القضاء يكون وراثياً فيهم .

وقد أشارت وثائق الوقف في أوجه صرفها إلى تعيين رواتب للقضاة وجوامك شهرية وسنوية ، ومن ذلك حجة وقف السلطان الأشرف شعبان ، التي حددت الصرف على القاضي في مكة المكرمة كل سنة ألف درهم نقرة ، بشرط أن يكون نظره على ما قرره السلطان من أموال ومصروفات ، على الوظائف المقررة في الحرم(١) ، حيث جمع القاضي أبو الفضل النويري بين القضاء والخطابة والنظر في الحرم(٢) ، كذلك خصص الأشرف شعبان صرف ألفين وخمسمائة درهم نقرة ، تصرف على مشايخ المذاهب الدينية ، فيصرف للشيخ شهاب الدين أحمد بن ظهيرة المكي الشافعي ، ألف درهم نقرة ، على أن يتصدى للاشتغال بالعلم الشريف ونشره ، وإحياء معالم الدين على عادة أمثاله ، ويصرف للشيخ عبد الرحمن بن أبي الخير المكي المالكي(٣) ، مبلغ خمسمائة درهم نقرة نظير اشتغاله بالعلم كسابقه ، ويصرف للشيخ الصالح محمد بن يعقوب الفيروزآبادي(٤) ، مبلغ ألف درهم على أن يتصدر في كل يوم على عادة أمثاله .

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ،ص ١٠٠ .

(٢) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٣٠١ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٢٩٦ .

(٣) هو : عبد الرحمن بن أبي الخير محمد بن أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسني الفاسي ، المكي ، يكنى بأبي زيد ، شيخ المالكية بمكة ولد عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م ، وتوفي عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٤٠٨ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٤ ، ص ١٤٩ .

(٤) هو : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم القاضي مجد الدين أبو الطاهر الفيروزآبادي الشيرازي الشافعي ، اللغوي ، المجاور بمكة ، مسموعاته وإسماعاته كثيرة على مشاهير علماء مصر واليمن ومكة والمدينة ، ومصنفاته كثيرة ، منها : شرح الفاتحة ، ألفه في ليلة واحدة ، والمغانم المطابة ، في معالم طابة ، والوصل والمنى في فضائل منى ، وفي الحديث : كتاب شوارق الأسر العلمية ، شرح مشارق الأنوار النبوية ، وغيرها ، توفي سنة ٨١٧هـ . العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٩٢ — ٤٠١ برقم ٤٨٨ ترجمة طويلة ، ابن حجر إنباء الغمر ، ج٧ ، ص١٥٧- ١٦٣ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ٧٩- ٨٦ .

(٤) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٠١ .

ويلاحظ أنه خصص مرتبات ثلاثة فقط من شيوخ المذاهب الأربعة ولم يخصص ضمن أوجه صرفه راتباً لشيخ المذهب الحنبلي ، ويلاحظ أيضاً أنه حتى تاريخ صدور هذه الوثيقة فإن إصدار أحكام القضاء كان فقط للقاضي الشافعي ، ثم تدرج بعد ذلك التاريخ فشمل قضاة المذاهب الثلاثة الباقية بالترتيب : الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي ، وهم مشايخ المذاهب الذين أصبحوا قضاة فيما بعد(١) .

وكانت أحكام القضاء في المدينة المنورة في بداية العصر المملوكي على المذهب الجعفري أو الإمامي الاثنا عشري ، غير أنه وردت إشارات إلى وجود بعض القضاة من أهل السنة في المدينة خلال تلك الفترة ، ومن هؤلاء الحسين بن أحمد بن علي أبي النصر الحنفي قاضي الحرمين(٢) ، وعبد الله بن يحيى الشيباني الطبري قاضي الحرمين(٣) ، ومن الواضح أن هؤلاء جميعاً كانوا أساساً قضاة في مكة ثم ندبوا لتولي القضاء في المدينة فأصبحوا قضاة للمدينتين ، غير أن الأوضاع المذهبية في المدينة بدأت في التحول التدريجي لصالح أهل السنة ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، ففي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ، أخذت الخطبة من آل سنان الذين كان منهم الخطباء والأئمة والقضاة الإمامية ، وأسند أمرها لأحد علماء السنة الذي قدم من مصر لهذا الغرض ، وهو القاضي سراج الدين عمر بن أحمد الأنصاري الدمنهوري الشافعي(٤) ، وقد أشارت إلى ذلك وثائق الوقف في أوجه صرفها على القضاة في المدينة النبوية ، ونصت حجة وقف الأشرف

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٠١ .

(٢) الحسين بن أحمد بن علي بن أبي النصر الحنفي قاضي الحرمين ، توفي عام (٤٥٦هـ/١٠٧٢م) ، القرشي (عبد القادر بن محمد) الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة دار العلوم ، الرياض ، ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م ، ج٢ ، ص ١٠٠ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٥٠٣ .

(٣) عبد الله بن يحيى الشيباني قاضي الحرمين توفي بعد سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٢٩٩ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٤٣٤ .

(٤) سراج الدين عمر بن أحمد الخضرى الأنصاري الدمنهوري الشافعي ، توفي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م ، وفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م ، عزلت الطائفة الإمامية عن القضاء وانكسرت شوكتهم ، فارتفع شأن أهل السنة وعلا أمرهم ، وساد المذهبان : الشافعي والمالكي من بين مذاهب أهل السنة حتى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ، وبدأ ظهور المذهب الحنفي في المدينة الذي كان له بعض الفقهاء في المدينة قبل ذلك التاريخ . ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٣١٢ — ٣١٧ .

شعبان على أن يصرف لقاضي الحكم في المدينة الشريفة مبلغ ستمائة درهم نقرة ، بشرط أن يكون نظره على الوظائف التي قررها السلطان شعبان بن حسين ، ولم تحدد الوثيقة هذه الوظائف ، ولعلها الوظائف نفسها التي كانت لقاضي الحكم الذي بمكة المشرفة ، إلا أنه يلاحظ أن راتب قاضي الحكم في المدينة يقل عن راتب نظيره في مكة الذي يتقاضى ألف درهم سنويًا ، أي بزيادة أربعمائة درهم عن قاضي الحكم في المدينة .

٢ـ الخطابة في الحرمين الشريفين : الخطابة من الوظائف الدينية المهمة في الحرمين الشريفين ، ومكانتها جليلة ، ومتوليها هو الخطيب ، وعليه إلقاء خطبة الجمعة والعيدين في الحرم ، وفي عرفة ومنى أيام موسم الحج من كل عام ، وقد احتفظ خطيب المسجد الحرام بمنزلة كبيرة في نفوس المسلمين بمختلف طبقاتهم ، وكان لا يتولاها إلا كبار علماء مكة الشافعية ، وذلك بمرسوم صادر من السلطان في مصر ، ففي عام ٨١٦هـ/١٤١٣م وصل للقاضي عز الدين النويري مرسوم بتوليه الخطابة(١) .

أَمَّا في المدينة المنورة ، فقد كانت الخطابة مقصورة على آل سنان(٢) خلال العصرين الفاطمي والأيوبي وبداية العصر المملوكي ، وفي عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م نزعت الخطابة من يد آل سنان في عهد السلطان المملوكي المنصور سيف الدين قلاوون ، وعين لها الشيخ سراج الدين عمر بن أحمد الخضري الشافعي .

٣ـ الإمامة في الحرمين الشريفين : الإمامة من الوظائف الدينية المهمة ، والتي لها مكانة كبيرة عند المسلمين ، وفي العهد المملوكي كان يلزم أن يكون قرار تعيين الإمام في وظيفته صادراً من السلطان المملوكي ، لأهمية هذه الوظيفة ، ففي عام ٨١٩هـ/١٤١٦م ، ولي إمامة المالكية بالمسجد الحرام محمد بن أبي الخير الفاسي المكي ، بتفويض

---

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٣٧٤ ، ج٢ ، ص ٥٧ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٠٩ .

(٢) هو سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الشريف الحسيني ،وكانت الخطابة في آل سنان ،وكان الحكم مرجعه إليهم وهم على مذهب الإمامية ،ولم يكن لأهل السنة خطيب ولا حاكم . السخاوي ، التحفة اللطيفة ،ج١ ،ص٥٢ ، ٥٣ .

من السلطان بمصر[١] ، وقد عرفت وظيفة الإمامة في المسجد الحرام نظام الوراثة[٢] ، ونظام النيابة في الإمامة[٣] .

وكانت تصل إلى الأئمة مع قرار التعيين خِلَع من السلطان في مصر ، وقد عينت حجة وقف الأشرف شعبان الصرف : من ريع الوقف على أربعة من أئمة الحرم المكي ، لإمامة الصلوات الخمس ، بجامكية سنوية مقدارها أربعمائة درهم نقرة لكل واحد منهم ، وهو مايعادل ثلاثة وثلاثين وثلث الدرهم شهريّا[٤] وعدا ذلك كان للأئمة نصيب من الصدقات المالية الواصلة لمكة[٥] .

وكانت الإمامة في المدينة المنورة مثل الخطابة ، متوارثة في آل سنان ، وفي أوائل العصر المملوكي كان هناك إمام شافعي يؤدي الصلاة بالناس أمام المحراب العثماني[٦] ، وفي عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م أحدث محراب للحنفية إلى جانب محراب الشافعي[٧] ، ويرى السمهودي أن حالة تعدد الأئمة في الحرم النبوي قد انتقلت إليه من الحرم المكي[٨] .

---

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣١٢ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٣٨ .

(٢) عرفت وظيفة الإمامة نظام الوراثة مثلها مثل الوظائف الدينية في الحرمين الشريفين ، فقد تولى الشهاب أحمد بن الضياء بن التوروزي القسطلاني إمام المالكية في المسجد الحرام بعد أبيه ، ولما توفي عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م خلفه أخوه البهاء عبد الرحمن بن الضياء التوروزي القسطلاني ، وفي عام ٧٦٠/١٢٧٢م تولى إمامة المالكية عمر بن عبد الله المالكي بعد وفاة عمه خليل بن عبد الرحمن المالكي . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٤٢٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص ٣٣٣ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٢٧٩ .

(٣) للإمام أن يعين نائباً ، وعادة يكون ولده أو أحد أقاربه ، وإن مات أحد المشاركين في منصب الإمامة ، فإن أبناءه عادة يخلفونه ، وقد يكون النائب من أحد العلماء المجاورين . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١١٨ ، ج١ ، ص ٢٨٤ ، ج٥ ، ص ٥٣٥ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٣٩١ ، ٤٣٤ ، ٥٧٠ .

(٤) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ٩٩ .

(٥) في عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م ، حج الشيخ بدر الدين الأقصرائي ، ومكث بعد سفر الحاج يومين بمكة لتفرقة قمصان أرسلها السلطان المؤيد شيخ ، وكان للأئمة نصيب منها ، وفي عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م لما قدم ناظر الخواص السلطانية إلى مكة نال الأئمة الشافعية اثنى عشر أشرفية والحنفية أربع أشرفيات والمالكية والحنابلة كذلك . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٧٤ ، عبد العزيز بن فهد ، بلوغ القرى ، ص ١٧٤ .

(٦) السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٨٣ .

(٧) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٢٦٧ ، وكان إحداث المحراب باقتراح من الأمين الأقصرائي على طوغان شيخ الأحمدي والذي كان أحد أمراء السلطان الأشرف إينال ، أَمَّا الصيرفي فيذكر أن إحداث محراب للحنفية تم سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م بمرسوم من السلطان الملك الظاهر برقوق . الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان ، ج١ ، ص ٤٩٣ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٢٤٥ .

(٨) السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٨٣ .

٤ ـ سدانة الكعبة المشرفة وخدام المسجد والحجرة النبوية الشريفة :

صاحب هذه الوظيفة هو السادن ، ووظيفته هي خدمة الكعبة المشرفة ، وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه ، كما يتولى السادن نزع الكسوة القديمة وإسبال الكسوة الجديدة ، والإشراف على الأعمال التي تتم داخل الكعبة وخارجها من الإصلاحات والترميم ويشارك في غسل الكعبة بماء زمزم(١) .

ومن المؤكد أنه كان للسدنة القائمين على خدمة الكعبة رواتب مقررة من بيت المال ، وأشارت حجة وقف السلطان الأشرف شعبان إلى تخصيص مبلغ ألف وخمسمائة درهم نقرة كل سنة تصرف لسدنة الكعبة المشرفة ، ولكنها لم تحدد عملهم أو عددهم(٢) ، كما كان للسدنة نصيب من الصدقات والأموال الواصلة إلى مكة ، ففي عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م ، وصلت الصدقة البنغالية ، وكان نصيب شيخ الكعبة أربعين ديناراً ، ولما وصلت الصدقة اليمانية عام ٩١٨هـ/١٥١٢م أخذ السادن الشيبي خمسة دنانير(٣) .

وكانت خدمة الحرمين الشريفين والحجرة النبوية الشريفة من أجلِّ الخدمات التي يطمح إليها الكثير من المسلمين تقرباً إلى الله ﷻ ، وأصبح لهذه الخدمة تنظيم خاص ابتداء من العصر الأيوبي ، وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري أصبح لخدام المسجد النبوي مشيخة(٤) ، وقد وردت أول إشارة

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٥٨ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٧١ ، المقريزي ، السلوك ، ج٢ ق٢ ، ص ٣٦٣ .

(٢) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٠٢ .

(٣) عبد العزيز بن فهد ، بلوغ القرى ، ص ٨٨ ، ص ٢٠٥ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٥٨ ، البرزنجي ، نزهة الناظرين ، ص ٩٠ . وكانت خدمة المسجد النبوي موجودة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، خدمة تطوعية ، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه أول من أجرى الرواتب للعاملين بالمسجد النبوي من المؤذنين وغيرهم ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٦٣ ، وذكر المؤرخ الأنصاري : "إنما كان القائم بخدمة الكعبة الشريفة والحجرة المنيفة في أيام الخلفاء والدولة العباسية : الفقهاء وأهل العلم والفضل" . الأنصاري (عبد الرحمن) (ت١١٢٤هـ/١٧١٢م) تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ، تحقيق ، العروسي المطري ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٧٠م ، ص ٥٤ ، وهناك عديد من الآراء حول أول من رتب وظيفة الخدام في المسجد النبوي ، الرأي الأول أن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب هو أول من قرر الخدام الخصيان بمدينة النبي ﷺ ولم يكن بها أحد ، والرأي الثاني أن ذلك تم في عهد السلطان نور الدين الشهيد في أول دولة الأكراد عام ٥٥٧هـ ، وأرسل اثني عشر

إلى شيخ الخدام في العصر المملوكي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م حين تحدث الميورقي[(١)] عن شيخ الخدام : بدر الدين الشهابي[(٢)] ، ولخدام المسجد النبوي مراتب ، ولكل مرتبة عمل معلوم[(٣)] ، ونظراً لأهمية وظيفة شيخ الخدام ، فإن تعيينهم يأتي مباشرة من السلطان المملوكي في القاهرة ، حيث يصدر مرسوم بذلك[(٤)] .

وكانت الرواتب الشهرية لخدام المسجد والحجرة الشريفة تصرف من مصر ، وقد وُقفت أوقاف متعددة على خدام المسجد النبوي منها ، وقف السلطان نور

نفراً من خدمة الطواشي إلى المدينة النبوية ليكونوا سدنة القبر الشريف ، وزاد عليهم السلطان صلاح الدين فيما بعد اثني عشر خادماً خصيًا . الأنصاري ، تحفة المحبين والأحباب ، ص ٥٤ ، البرزنجي ، نزهة الناظرين ، ص٩٠ .

(١) الميورقي (أحمد بن علي بن أبي بكر العبد ري) ، بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج ، تحقيق إبراهيم الزيد ، ط١ ، الطائف ، ١٤٠٤هـ ، ص ٣٤ .

(٢) بدر الدين أبو الضياء الحبشي الشهابي الطواشي ، توفي بالمدينة سنة ٦٦١هـ . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦٦٣ .

(٣) يبدو أن أسماء الرتب قد أصابها بعض التغيير من وقت لآخر ، فنجد العياشي يذكر مراتبهم وأعمالهم بقوله : ((إن أكبر الرتب بالنسبة لخدام المسجد النبوي هي رتبة شيخ الحرم يليه النقيب ، ثم المستلم وهو المسؤول عن استلام الصدقات وعن جميع ما يتصرف فيه ، ومصالح المسجد من زيت وشمع وخلافه ، وعنده مفاتيح الحجرة الشريفة ، والشيخ والنقيب والمستلم هي أكبر الوظائف عند الأغوات ، ثم بعد ذلك البطالون وهم يعملون في النظافة خارج الحجرة ، والمسجد النبوي ، ولا يحق لهم الجلوس مع الأكابر في الدكة وإنما يجلسون خارجها)) . العياشي (أبو سالم بن محمد بن أبي بكر) ، ماء الموائد ، المطبعة الحجرية الفاسية ، فاس ، ١٣١٦هـ ، ص ٣٠٥ ، أَمَّا بشكارى زاده فيقسم الأغوات إلى قسمين "أولهما الأعاجم وهؤلاء يعرفون بالبطالين والخبزيين وقسم شيخ الحرم وأربعة ضباط هم نائب الشيخ والمستلم والخزيندار والنقيب" بشكارى زاده (درويش أحمد) رسالة في تاريخ المدينة المنورة (باللغة التركية) ، مكتبة السليمانية ، قسم برتونيال ، رقم (٤٤٠) ، ومكتبة جامعة إسطنبول ، رقم (ت٦٧٠٦) ، ص ١٧ ، ١٨ ، وأيوب صبري ، مرآة الحرمين ، ص ٧٦ . وأورد السخاوي الوظائف التي يقوم بها العاملون في مشيخة الخدام : وهي : "حفظ المسجد نهاراً ، ومباشرة قفل أبواب ه ، والمبيت في حراسته ... وتنزيل القناديل وتعليقها للتعمير والوقود ، وغسلها أو مسحها ، وإسراج ما يوقد منها سحراً ، والدوران بعد صلاة العشاء بالقناديل ، لتفقد من يخشى من مبيته ، ولا يبيت فيه إلا الفراش لطفي القناديل وفتح الباب للمؤذن قبل صلاة الفجر ، وكنس المسجد والروضة والحجرة كل جمعة وفرش بساط أمير المدينة ، ولبخور المسجد أيام الجمع خادم يخصه" . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦٣ .

(٤) أورد القلقشندي نص مرسوم تعيين شيخ الخدام في الحرم الشريف النبوي ، صبح الأعشى ، ج١٢ ، ص ٢٦٠ .

الدين الشهيد والسلطان صلاح الدين الأيوبي والذي ظل يؤدي دوره في الصرف على هذه الفئة والإنفاق عليها حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري[١] ، ويحدّد العديد من وثائق الوقف في العصر المملوكي ضمن أوجه الصرف : خدام المسجد والحجرة النبوية الشريفة ، ومن ذلك حجة وقف الزيني عبد اللطيف منصور بدوي ، والتي حددت صرف مبلغ ثمانمائة وخمسة وسبعين درهماً لتعيين خادم بالحجرة الشريفة النبوية ، كما قررت الوثيقة صرف سبعين ديناراً من الذهب لخدام المدينة الشريفة ، كما نصت حجة وقف الأشرف شعبان على تعيين عشرين خادماً من الخدام البطالين ، واشترطت على كل منهم أن يقوم بخدمة المسجد والحجرة الشريفة وحددت مجموع أجورهم بخمسة آلاف درهم نقرة سنويّا توزع بالسوية بينهم بواقع مئتين وخمسين درهماً سنويّا لكل واحد منهم[٢] ، كما وقف السلطان الأشرف برسباي ، وقفاً لخدام الحرم المكي ، فقد قرر صرف ثلاثين ألف نصف فضة ديوانية سنويّا ترسل بصحبة الركب الشريف مع أمير الحاج المصري ليسلمها لشيخ الحرم الشريف المكي[٣] .

٥ ـ الأذان في الحرمين الشريفين : صاحب هذه الوظيفة هو المؤذن ، ووظيفته : إعلام الناس بدخول وقت الصلاة ، ونظراً لأهميتها الدينية كان لمتوليها شروط ، منها : أن يكون مسلماً عاقلاً ذكراً بالغاً عالماً بأوقات الصلاة ،

---

(١) وقف السلطان نور الدين الشهيد والسلطان صلاح الدين الأيوبي قريتي (نكاده) و (سندبيس) على خدام المسجد والحجرة النبوية الأربعين وكان ريع هذه الأعيان الموقوفة سنويّا ثمانين ألف نصف فضة ديوانية . انظر : أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ، حجة مؤرخة ٢٦ من شوال سنة ١١٢٨هـ/١٧١٥م رقم الوثيقة (٦١٧/١١٤١/٤١٨/٢ج) بتسليم أمير الحج الشريف الصرة من وقف صلاح الدين الأيوبي لخدام الحجرة الشريفة النبوية ، كما أورد برتون تفصيلاً لمرتبات الأغوات :

. Burton : (Narratve of a Pilgrimage, V, 1, p . 371

(٢) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٢٢ .

(٣) استمر صرف ريع وقف السلطان الأشرف برسباي على خدام الحرم الشريف المكي حتى العصر العثماني وأضيف في أعيانه الموقوفة لتقوية ريع الوقف ، ففي سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م قرر (بشير أغا) لأغوات الحرم المكي جزءاً كبيراً من خلال وقفيته على الحرمين الشريفين قدرها (١٨٢٢٥) نصف فضة ديوانية يستلمها شيخ الأغوات . دار الوثائق القومية ، سجلات الديوان العالي ، سجل واحد ، مادة ٤٧٧ ، ص ٢٣١ ، وثيقة وقف مؤرخة في ذي الحجة سنة ١٠٨٣هـ ، بإيصال ريع وقف السلطان الأشرف برسباي للناظر بمكة المشرفة ، رقم الحجة (١٢٧٧/١٤٧٨/١٣٩٦/١ج) أرشيف وزارة الأوقاف .

حسن الصوت ، مسموعاً ، ذا معرفة بالوقت[١] ، وكان المسجد الحرام في العصر المملوكي ، يحتوي على ست منائر[٢] ، يؤذن عليها في الأوقات الخمسة ، وكانت هناك منائر أخرى على رؤوس الجبال ، ولكن هذه المنائر لم يعد لها وجود في العصر المملوكي[٣] .

وذكر ابن جبير ، وابن بطوطة أن رئيس المؤذنين في المسجد الحرام ، كان يؤذن على سطح قبة زمزم ، وقد استمر ذلك في العصر المملوكي[٤] ، وهناك وظيفة في المسجد الحرام ارتبطت بوظيفة المؤذن وهي وظيفة الميعاد أو (المؤقت أو الميقاتي)[٥] ، ولم تحدد المصادر التاريخية مقدار الرواتب التي كانت تصرف للمؤذنين .

---

(١) السبكي ، معيد النعم ، ص ١١٥ ، ابن الإخوة ، معالم القربة ، ٢٦٧ ، العبد ري ، رحلته ، ص ٦٠ .

(٢) كان للمسجد الحرام ست منارات ، الأولى : منارة باب العمرة وقد عمرها أبو جعفر المنصور (١٣٨ - ١٥٨هـ/ ٧٥٤ - ٧٧٦م) ، ثم سقطت فعمرها صاحب الموصل محمد الجواد الأصفهاني عام ٥٥١هـ/١١٥٦م ، الثانية : منارة باب السلام أو شيبة وقد عمرها أمير المؤمنين المهدي عام ١٦٨هـ/ ٨٧٤م ، وأعيد تعميرها في عهد الناصر فرج عام ٨١١هـ/١٤٠٨م ، الثالثة : منارة باب علي أنشأها أمير المؤمنين المهدي ، الرابعة : منارة باب الحزورة أو باب الوداع أنشأها المهدي العباسي ، ثم أعاد تعميرها الأشرف شعبان عام ٧٧١هـ/١٣٦٩م ، الخامسة : وهي في زيادة دار الندوة أو منارة سويقة بناها الخليفة المعتضد العباسي ، وأعاد بناءها الأشرف برسباي عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م ، السادسة : منارة قايتباي في باب النبي ﷺ أنشأها قايتباي عند مدرسته عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م . النهروالي ، الإعلام ، ص ١٤٦ ، الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٨٥ ، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج٨ ، ص ٣٣٠ .

(٣) كانت هناك منارات على رؤوس الجبال بسبب أن الأذان في المسجد لا يسمعه من يسكن في فجاج مكة ومن كان نائياً عن المسجد الحرام ، وفي عصر هارون الرشيد ، أمر عبد الله الخزاعي أن تتخذ على رؤوس الجبال منارات وأجرى للمؤذنين الأرزاق . عبد الله غازي ، إفادة الأنام ، ج١ ، ص ٦٤٩ ، الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٨٨ ، الطبري ، الأرج المسكي ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) كان المؤذنون في منائرهم عند وقت السحور في ليالي رمضان ، يعمدون إلى إيقاد قنديلين من الزجاج ويضعونهما على خشبة ، فإن حان وقت الأذان ، أطفئ القنديلان وناموا ، ويراقب الناس حول المسجد هذه القناديل فإذا أطفئت امتنعوا عن الطعام ، أَمَّا ليلة عيد الفطر فيقضيها المؤذنون في منائرهم مهللين مسبحين مكبرين ، وتكاد تكون وظيفة الأذان وراثية في الأسرة الواحدة ، فأغلب المؤذنين من أسرة الكازروني (نسبة إلى مدينة كازرون بفارس) وكانت لهم رئاسة المؤذنين بالمسجد الحرام ، وكان كبيرهم يعرف (بالريس) كما عرفت وظيفة المؤذن نظام الجمع بينها وبين غيرها من الوظائف ونظام المناصفة في وظيفة الأذان . ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٢٣ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٦٦

(٥) المؤقت : أو الميقاتي ، من يقوم بالإعلام بالوقت من خلال مزولة أو من خلال خزانة فيها مناكيب زجاج لمعرفة الوقت ، ولابد أن يكون متوليها على علم بالمواقيت . السبكي ، معيد النعم ، ص ١١٥ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ص ١٥٦ .

وقد أشارت حجة وقف السلطان الأشرف شعبان ضمن أوجه الصرف بها إلى ما رتبته على خمسة مؤذنين من جليي الصوت ، وحددت مكان عملهم ، بأربعة يعلنون الأذان من المآذن التي بالحرم ، كل منهم في مئذنة منها ، والخامس يعلن الأذان على سطح زمزم ، ونصت الوثيقة على أن يكون مؤذن سطح زمزم هو حسين بن يوسف المادح إلى أن يتوفى ، فيقرر الناظر لهذه الوظيفة من يراه ويؤدي إليه اجتهاده ، ويصرف لهؤلاء الخمسة مبلغ ألفي درهم نقرة كل سنة ، أي أن كلاً منهم كان يتقاضى أربعمائة درهم سنويّا ، بمعدل ثلاثة وثلاثين درهماً وثلث الدرهم شهريّا ، وهناك أربعة آخرون يعلنون الأذان ، على الجبال الأربعة المحيطة بمكة ، ليبلغ الأماكن البعيدة عن الحرم ، واشترطت الوثيقة أن يدعو هؤلاء المؤذنون في وقت السحر للسلطان الواقف ، ولجميع المسلمين ، ورتبت لكل منهم راتباً سنويّا قدره : مائة وعشرون درهما نقرة ، بمعدل عشرة دراهم في الشهر[1] .

وكان للمؤذنين نصيب من الصدقات الواصلة إلى مكة ، ففي عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م قدم ناظر الخواص إلى مكة وفرق صدقة ، وحصل المؤذنون في كل مئذنة على أشرفي[2] .

ولم يكن بالمدينة المنورة في أوائل العصر المملوكي - كما يقول ابن فرحون - : « من يوثق به في معرفة الأوقات وتحريرها ، فبعثوا لها من مصر ثلاثة ، أحدهم والد الشيخ جمال الدين أحمد بن خلف المطري ، والثاني الشيخ إبراهيم بن محمد الكناني العسقلاني بن إبراهيم ، والثالث عز الدين المؤذن »[3] ، واستمرت وظيفة الأذان وراثية في بعض الأسر ، منها : أسرة المطري ، الكناني ، بني الخطيب ، يتولاها الأبناء عن الآباء ، مثال ذلك : خلف أحمد المطري الذي ولى ابنه أبا عبد الله

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ٩٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد ، بلوغ القرى ، ص ٧٤ .

(٣) ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٥١ - ١٥٤ - ١٥٥ .

جمال الدين والذي اشتهر بحسن الصوت وناب كذلك في الحكم والخطابة[١] ، ولم تحدد المصادر التاريخية مقدار الرواتب المرسلة من مصر للمؤذنين في المدينة ، علماً بأن وثيقة وقف الأشرف شعبان قد أشارت إلى ذلك ضمن أوجه الصرف بها فقد قررت الوثيقة صرف مبلغ أربعمائة درهم نقرة لكل مؤذن من المؤذنين بمآذن الحرم النبوي سنويًا ، وهو مساوٍ لما يتقاضاه نظراؤهم في حرم مكة المكرمة ، ولكن الوثيقة لم تذكر عدد هؤلاء المؤذنين ولا إجمالي المبلغ الذي كان يصرف لهم حتى يمكن تحديد عددهم آنذاك[٢] .

٦ ـ النظارة على الحرمين الشريفين :

صاحب هذه الوظيفة هو ناظر الحرم أو شيخ الحرم ، وهي وظيفة إدارية بحتة ، والقائم بها مهمته الرئيسية الإشراف التام على ما يحدث في داخل الحرم من بناء أو تعمير أو ترميم أو إصلاحات[٣] ، وفي العصر المملوكي كان الخليفة العباسي في مصر ، هو الذي يصدر قرار تعيين ناظر الحرم[٤] ، ثم أصبحت مراسيم تعيين ناظر الحرم تصدر من قبل السلطان المملوكي ، ففي عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م ، باشر الضياء الحموي وظيفة نظر

---

(١) أبو عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد بن خلف المطري (نسبة للمطرية في مصر) توفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م . ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٥١ ، الفيروزآبادي ، المغانم المطابة ، ص ٢٦٢ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٤٠٣ .

(٢) راشد القحطاني أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص١٢٠ .

(٣) محمد الطاسان ، الوظائف الدينية والإدارية بالمسجد الحرام في عهد دولة المماليك ، العصور ، المجلد الخامس ، الجزء الثاني ، لندن ، دار المريخ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .

(٤) أورد ابن فهد نص قرار تعيين ناظر الحرم الصادر من الخليفة العباسي المستنصر بالله أبي القاسم عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م للوجيه عبد الرحمن بن عبد المعطي وابن أخيه الشريف عبد المعطي ، ومهمتهما : النظر في مصالح المسجد الحرام ، والنظر في الأوقاف والربط في مكة ، وإظهار شعار الخلافة في مكة وغيرها ، والنظر في المدارس وإقامة الخطبة للخليفة وضرب السكة والإشراف على السبل ، وقيادة المحمل والحجيج ، وأن يكاتبا زعماء الحجاز واليمن ، وسائر البلاد من أجل مبايعة الخليفة وطاعته وعونه . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٨٥ – ٨٦ .

الحرم ومشيخته[(١)] ، كما عرفت وظيفة نظر الحرم نظام التوارث[(٢)] ، ونظام النيابة[(٣)] .

وكانت النظارة في المدينة النبوية من الوظائف المهمة ، وكان من يشتغل بها يعرف بناظر الحرم النبوي ، ففي عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م ، أصدر السلطان الأشرف برسباي مرسوماً بتعيين شاهين الجمالي[(٤)] ، متولياً ناظر الحرم النبوي وعمارة المسجد النبوي[(٥)] ، ومن النظار في الحرم النبوي : محمد بن أحمد الجبرتي[(٦)] ، وأحمد الشهاب السندوي[(٧)] .

---

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٨٨ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٢٧٩ ، ومن التنظيم المتبع في هذه الوظيفة أن يتولاها في بعض الحالات اثنان مشاركة كما حدث عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ، وكذلك عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٨٢ ، ويقرأ مرسوم تعيين الناظر في المسجد الحرام ، وبحضور جمع من أعيان أهالي مكة ، ويصل مع المرسوم خلعة مهداة من السلطان لصاحب الوظيفة ، وكما أن التعيين للناظر بمرسوم سلطاني ، فكذلك العزل بمرسوم سلطاني ويكون فيه مرسوم لمن يتولى النظارة وقد يكلف ناظر الحرم بمجموعة من الوظائف بجانب مهام وظيفته مثل القضاء – الحسبة – الخطابة – سدانة الكعبة – مشد العمارة ، ومن غرائب الأمور ما حدث عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م حيث جمع ولي الدين محمد بن قاسم نظارة الحرم ، ومشيخة خدام المسجد النبوي بالمدينة . المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٩٦١ ، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج٨ ، ص ٣٧٩ ، ابن تغري بردي ، حوادث الدهور ، ج١ ، ص ٢٣٤ .

(٢) والاستشهادات على ذلك من خلال المصادر التاريخية كثيرة . انظر : الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١١٠ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٤٠ ، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج٣ ، ص ١٠٤ .

(٣) انظر : الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٢١١ ، ج١ ، ص ٣٧٦ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٧ ، ص ٤٥ .

(٤) هو : الأمير شجاع الدين شاهين الجمالي الرومي ثم القاهري ، الحنفي ، أحد أمراء العشرات ، ولد سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م ، وعمل في وظائف متعددة بالمدينة المنورة منها ناظر الحرم النبوي ومتولي عمارة المسجد النبوي ، وعين نائباً في جدة وناظراً على عمارة المسجد الحرام وعلى سقيا العباس بمكة . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٤٨٢ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٢٩٣ ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٢١٠ – ٢١٣ .

(٥) السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤٦ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٢١٢ .

(٦) محمد بن أحمد الجبرتي ، توفي سنة ٧٦٥هـ/١٣٩٤م . ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٤١٦ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٤٧ .

(٧) أحمد الشهاب السندوي ، توفي سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٢٧٧ .

٧ ـ ناظر عمارة الحرمين الشريفين : صاحب هذه الوظيفة ، هو ناظر العمارة ، ويتولاها أمراء مماليك ، وهي وظيفة مؤقتة ، حيث يرسل السلطان أحد أمرائه للقيام بعمارة معينة في أحد الحرمين الشريفين أو خارجهما ، وتنتهي مهام هذه الوظيفة بانتهاء المكلف من أداء العمل المطلوب منه[١] ، ففي عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، علاء الدين علي بن هلال الدولة ، لعمارة ما تهدم من الحرم ، وجهز بما يحتاج إليه من مال وصناع وآلات ، وكتب لشريف مكة بمساعدته[٢] ، كما أنه في عام ٨٢٨هـ/١٤٢٤م ، عمر الشبابيك المحيطة بمقام إبراهيم[٣] .

وقد تزداد صلاحيات ناظر العمارة ، ففي عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م ، أرسل السلطان الظاهر جقمق الأمير سودون المحمدي إلى مكة ، ليكون مشد العمارة بمكة ، وأميراً على خمسين فارساً من الترك المقيمين بها[٤] .

وتشير بعض وثائق الوقف ضمن مصروفاتها إلى مرتبات القائمين بمهام هذه الوظيفة ، فقد نصت وثيقة وقف السلطان الأشرف شعبان ضمن أوجه الصرف بها على صرف مبلغ ألف درهم نقرة في كل سنة ، للمباشرين على عمارة المسجد الحرام وترميمه وإصلاحه ، ولم تحدد الوثيقة عددهم ، لكنها نصت على أن ذلك المبلغ يقسم عليهم بالسوية على قدر عددهم[٥] .

---

(١) يقول القلقشندي عن مهام وظيفة نظار العمارة : هو الذي له الأمر على المهندسين والحجارين ، وصُناع العمائر ونحوهم ، وكان يتولاها في بادئ الأمر أمير عشرة ، ثم صار يتولاها قوم بغير إمرة" . القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٣ .

(٢) المقريزي ، ج٢ ق ٢ ص ٢٩٠ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٣ ص ٢١١ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٨٥ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ق ١ ، ص ٣٠٣ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٨٧ .

(٤) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٤٨ ، النهروالي ، الإعلام ، ص ١٤٥ .

(٥) راشد القحطاني ، أوقاف الأشرف شعبان ، ص١٠٠ .

وأول من تولى وظيفة ناظر العمارة بالمدينة المنورة الأمير جمال الدين محسن الصالحي ، بتكليف من السلطان الظاهر بيبرس ، وذلك لعمارة المسجد النبوي من الحريق الذي أصابه سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ، وباشر العمارة سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م[١] ، وعندما احترق المسجد النبوي في عام ٧٨٦هـ/١٤٨١م أرسل السلطان الأشرف قايتباي الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن ، ناظراً على عمارة المسجد النبوي وانتهى العمل في أواخر سنة ٧٨٧هـ/١٤٨٢م[٢] ، وضمن أوجه الصرف على القائمين بمهام هذه الوظيفة من خلال وثائق الوقف المملوكية على مصالح الحرمين الشريفين ، قررت حجة وقف الأشرف شعبان صرف مبلغ ستمائة درهم نقرة سنويّا ، لمباشري العمارة بالحرم النبوي الشريف ، ولم تحدد عددهم أو تشترط عليهم أية شروط[٣] .

٨ـ السقاية في الحرمين الشريفين : السقاية[٤] وظيفة قديمة ، وهي من الوظائف التي وزعها قصي بين أولاده ، فكانت من نصيب ابنه عبد مناف ، ثم تولاها ابنه هاشم ، ثم عبد المطلب بن هاشم ، الذي أعاد حفر بئر زمزم ، ثم تولى السقاية ابنه العباس ، ولما فتح الرسول ﷺ مكة عام ٨هـ/٦٢٩م ، أبقى العباس على وظيفته فبقيت في عقبه من الخلفاء العباسيين ، ولكن بني العباس حالت أعمال الملك دون قيامهم بأمر السقاية فكانوا يعهدون بذلك إلى آل

---

(١) السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤١ ، ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٩٤ .

(٢) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٣٤ ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٢٠٦ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤١ .

(٣) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٢١ .

(٤) السقاية : يقصد بالسقاية حياض من أدم ، كانت على عهد قصي توضع بفناء الكعبة ويُسقى منها الماء العذب تحمله الإبل من الآبار ويُسقاه الحجاج . الأزرقي ، أخبار مكة ، ج١ ، ص ١١٠ ، الفاكهي ، أخبار مكة ، ج٢ ، ص ١١ – ٧٠ .

الزبير المتولين التوقيت بالحرم ، للقيام بأعمال السقاية بالنيابة ، ثم تركوها لهم وأشركوا معهم آخرين للعمل في هذه الوظيفة عرفوا باسم الزمازمة ، لأن السقاية مرتبطة ببئر زمزم(١) ، وأول ما ذكر في المصادر عن هذه الوظيفة في العصر المملوكي ، يعود إلى عام ٧٣٠هـ/١٢٣٢م ، ففي العام المذكور قدم من العراق إلى مكة علي بن محمد البيضاوي(٢) ، الذي عرف فيما بعد بالزمزمي وعمل عند الشيخ سالم بن ياقوت(٣) ، المؤذن في بئر زمزم ، الذي أعجب بمهارته في العمل ، فنزل له عن السقاية ، وزوجه ابنته ، فأنجبت له الأبناء الذكور ، الذين صار لهم أمر بئر زمزم(٤) ، وسقاية العباس(٥) .

كما حددت وثائق الوقف على مصالح الحرمين الشريفين ضمن أوجه الصرف بها : الصرف على السقاية على الحرمين الشريفين بصفة عامة ، لما في

---

(١) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، الفاكهي ، أخبار مكة ، ج٥ ، ص ١٧٣ ، ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) هو : علي بن محمد بن داود البيضاوي المعروف بالزمزمي ، نزيل مكة ، قدم إليها عام الفيل (٧٣٠هـ/١٢٣٢م) ((نسبة إلى الفيل الذي خدم مع حجاج العراق وما صاحب ذلك من فتنة بمكة)) توفي سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م ، ودفن بالمعلاة . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٢٣٠ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٩٢ ، عبد الله غازي ، إفادة الأنام ، ج١ ، ص ٥٥٢ . (والبيضاوي) : نسبة إلى قرية في شيراز من بلاد فارس . ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥٢٩ .

(٣) هو : سالم بن ياقوت المكي أبو أحمد المؤذن في الحرم الشريف ، كان حياً في بداية سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٤٩١ .

(٤) بئر زمزم : تقع داخل المسجد الحرام ، وهي عبارة عن بناء كبير عليه قبة كبيرة ، وداخلها سقاية سعتها شبر وعمقها شبران ، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء ، وهي مقابل الحجر الأسود بينهما أربع وعشرون خطوة ، وحول البئر مسطبة يجلس عليها الناس للوضوء . الأزرقي ، أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٥٩ ، الفاكهي ، أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٧٩ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٧ ، ص ٢٥٠ .

(٥) سقاية العباس ، تلي بئر زمزم ، وهي موضع مجلس العباس ، وتقع في يسار الداخل إلى زمزم ، وأول من عمل لها قبة سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ، في زمن ولاية خالد القسري ، عامل سليمان بن عبد الملك الأموي ، وقد وصفها المؤرخون والرحالة . الأزرقي ، أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٦٠ ، العبدري ، الرحلة المغربية ، ص ١٧٧ ، التجيبي ، مستفاد الرحلة ، ج١ ، ص ٣٢٣ .

سقاية الماء من ضرورة لحياة الإنسان وأهميته للطائفين من الحجاج والمعتمرين ومرتادي المسجد الحرام ، وللواقف الأجر والثواب عند الله تعالى .

ومن أوائل تلك الوثائق حجة وقف الأشرف شعبان التي خصصت صرف ثلاثمائة وستين درهماً سنويّا لتعيين سقاء يسقي الماء من بئر زمزم لسائر الناس ، كما حددت ما يصرف له على مصالح البئر كثمن دلاء وبكر وسلب مائتي درهم نقرة سنويّا ، فيكون مجموع ما كان مخصصاً لبئر زمزم وسقائها خمسمائة وستين درهماً نقرة سنويّا ، كما عينت الوثيقة نفسها اثنين من السقائين يسقيان الماء في الحرم المكي ووزعت العمل بينهما ، فأحدهما يعمل بالنهار والآخر بالليل ، كما حددت الوثيقة مكان عملهما فيما بين المقام الشريف والكعبة الشريفة ، يسقيان الطائفين بالكعبة وغيرهم ، وقررت لهما عن ثمن الماء وأجرة الماعون وأجرتهما ألفاً وخمسمائة درهم سنويّا ، بواقع سبعمائة وخمسين درهماً لكل سقاء منهما ، وهو أجر كبير إذا قيس بسقاء بئر زمزم ، كما رتبت الوثيقة لمن يسقي الماء طول النهار بمكة ، مبلغ ستمائة درهم مقابل ثمن الماء العذب والماعون وأجرة تسبيله على الناس أي بواقع خمسين درهماً شهريّا[1] .

و أشارت حجة وقف السلطان فرج بن برقوق ، ضمن أوجه الصرف بها في مصالح الحرمين الشريفين إلى الصرف على تسبيل الماء في الحرمين الشريفين على ما يراه الناظر : « ... بما يكون أعظم أجراً وأكثر ثواباً للواقف يفرق ذلك فضة أو فلوساً أو طعاماً أو ما يكون أكثر نفعاً للآخذ وأجرا للواقف خلد الله تعالى ملكه وسلطانه كما عم الوجود بفضله وإحسانه ... »[2] .

وعلى نسق ما ذكر تجيء حجة وقف السلطان الغوري ، والتي وجهت مصاريفها في شؤون الحرمين الشريفين ، فنصّت على صرف عشرة دنانير أو ما

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٠٤ .

(٢) حجة وقف السلطان فرج بن برقوق ، المؤرخة في ٧ من محرم سنة ٨١٢هـ ، رقم الوثيقة (٦٦) محفظة (١١) ، دار الوثائق ، سطر رقم ٥١١ .

يقوم مقامها من النقود ، في ثمن تسبيل عشرة دوارق وما يقيها من حر الشمس ولمن يملؤها من ماء زمزم أو غيرها من الآبار المباركة والسيول والعيون ويسبل ذلك طول السنة بعد تبريده في باب السلام ، على الخاص والعام في الحرم الشريف المكي[1] .

أَمَّا السقاية في المدينة المنورة فكان من مهامها تزويد المسجد النبوي بالماء اللازم للشرب من السقايات الموجودة داخل المسجد أو خارجه[2] ، وكان السقاؤون يملأون الدوارق بالماء ، ويضعونها أمام المصلين[3] ، وحددت وثائق الوقف ضمن مصاريفها : الصرف على السقاية بالمسجد النبوي ، ومن تلك الوثائق حجة وقف الأشرف شعبان ، فقد قررت الوثيقة تعيين رجل يسقي الماء العذب في كل يوم بالحرم النبوي على عادة أمثاله ، وجعلت راتبه ستمائة درهم سنويًا بما فيها ثمن الماء العذب وثمن الدوارق وأجرة تسبيل الماء بالحرم .

٩ ـ وظيفة الفراشة في الحرمين الشريفين : صاحب هذه الوظيفة هو الفراش ، أَمَّا ما تتطلبه هذه الوظيفة ، فهو المحافظة على نظافة الحرمين الشريفين وكنس الأوساخ منهما ، وكان فراشو الحرم المكي يشاركون في غسل الكعبة المشرفة بالإضافة إلى مهمتهم الأساسية ، وكانت هناك بعض الوظائف التي تسند إلى الفراشين ، فقد يجمع

---

(١) حجة وقف السلطان الغوري ، المؤرخة في ٢٦ من محرم سنة ٩٠٩هـ ، رقم الوثيقة (٨٨٢ق) أوقاف ، وهناك العديد من الوثائق التي وجهت صرفها على السقاية بحرم مكة ، انظر حجة وقف السيفي أيتمش الظاهري ، رقم (١١٤٣ق) أوقاف ، حجة وقف السيفي تغري بردي الأحمدي ، رقم (١٥٢) ، دار الوثائق ، حجة وقف قاني باي الرماح ، رقم (١٠١٩ق) أوقاف ، حجة وقف السيفي أسنبغا ، رقم (٨٢) ، دار الوثائق ، وحجة وقف جمال الدين الإخميمي ، رقم (٣٣) ، دار الوثائق ، وحجة وقف عبد اللطيف الصالحي ، رقم (٧١) ، دار الوثائق ، حجة وقف فاطمة زوجة الزيني شعبان ، رقم (١٥٠) ، دار الوثائق .

(٢) ابن النجار (محمد بن محمود) (ت٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، الملحق الثاني من كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، لتقي الدين الفاسي ، تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء (د .ط ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة ، د .ت) ج٢ ، ص ٣٧٧ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٧٨ .

(٣) ذكر ابن فرحون عن السقائين بالحرم المدني قوله : ((تصفّ الدوارق من باب الرحمة إلى باب النساء ويجعل في أعناق الدوارق مقطع يقيدها به حتى لا تسرق ولا تغير من مكانها ...)) . ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٩٩ .

الفراش بين وظيفته والتكبير بأحد المقامات ، وممن تولى ذلك عبد الله بن محمد بن علي المصري ، المكي[(١)] ، الذي كان فراشاً بالمسجد الحرام ومكبراً بمقام الحنابلة[(٢)] ، وجمع بين الفراشة والأذان : أحمد بن سالم بن ياقوت المكي[(٣)] ، الذي كان مؤذناً بالحرم الشريف ، وشيخ الفراشين وأميناً على شمع الحرم والزيت[(٤)] . ويرأس الفراشين بالمسجد الحرام رئيس يسمى شيخ الفراشين ، وتسمى وظيفته مشيخة الفراشين[(٥)] ، وبحكم وظيفته كان عليه مراقبة الفراشين ، للتأكد من أداء عملهم على الوجه الأكمل ، كذلك عرفت مهنة الفراشة نظام التوريث[(٦)] ، أَمَّا عن رواتبهم فقد عينت وثيقة وقف الأشرف شعبان ، ثمانية من الفراشين يتناوبون على خدمة الحرم المكي ، وتنظيف أروقته ، وأسطحه من الأوساخ وكنس أبواب الحرم ، وأمام مدخل الأبواب ، وقد حدد لهم مبلغ ألف وسبعمائة درهم نقرة ، توزع بينهم بالسوية ، أي أن راتب الفراش الواحد كان ثلاثمائة درهم سنويّا ، بواقع خمسة وعشرين درهماً شهريّا كذلك قررت الوثيقة مبلغ ثلاثمائة درهم ، لثلاثة أنفار يتولون تنظيف الحرم المكي ، من الهوام والحشرات حتى لا يتأذى الحجاج ، وعينت

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن أبي بكر بن إسماعيل المصري المكي ، توفي بمكة عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ١٦ .

(٢) ابن فهد ، الدر الثمين ، ص ٣٦ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٨ ، ص ١٧٣ .

(٣) أحمد بن سالم بن ياقوت المكي ، توفي عام ٧٧٨هـ/١٣٧٦م . الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٦ ، ص ٢٥٥ .

(٤) كان في الحرم المكي قبة تسمى قبة الفراشين تلي بئر زمزم معدة لمصالح الحرم من فوانيس وشمع ومسارج وزيت وشمعدانات . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٦ ، ص ٢٥٨ ، الطبري ، الأرج المسكي ، ص ٧٧ .

(٥) وممن شغل وظيفة مشيخة الفراشين في المسجد الحرام ، أحمد بن سالم بن ياقوت المكي ، المتوفى عام ٧٧٨هـ/١٣٧٦م . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٣ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٣٢٨ ، الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٦ ، ص ٢٥٥ ، وكذلك محمد بن علي بن عبد الكريم المصري ، المتوفى عام ٨٢٥هـ/١٤٢١م . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٢٢٢ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٣٢٨ .

(٦) ورث محمد بن محمد بن يوسف الذردي الشهير بالمصري ولده في وظيفة الفراشة في المسجد المكي ، وفاته عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٢٧ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٣٩ .

الوثيقة شخصين يتوليان تنظيف مابين الصفا والمروة من العظام والأوساخ ، بحيث يكون المسعى بين الصفا والمروة نظيفاً باستمرار ، وقد خصصت لهم الوثيقة ألف درهم سنويّا ، تقسم بينهما بالسوية ، أي خمسمائة درهم لكل منهما[١] ، وكان الفراشون يتلقون أحياناً أموالاً على شكل أعطيات أو إنعامات زيادة على رواتبهم[٢] .

أمَّا وظيفة الفراشة في المدينة النبوية فقد حددها السخاوي في عصره بأربعين شخصاً ، كما حدد مهامهم التي كان منها ، فرش الروضة ، وجهة باب السلام شتاءً وصيفاً ، وتزاد الروضة أيام الجمع ، ونصب الستائر على الأبواب الأربعة للحجرة ، وحمل السناجق ونصبها ، وإخراج الشمع في كل ليلة ، ويزاد في شهر رمضان ، وتعمير القناديل وإسراجها مع المغرب ، وإطفاؤها صباحاً ، وإخراج الزيت من الحاصل[٣] ، وللفراشين أوقاف معلومة ، يصرف ريعها عليهم ، وكان وقفهم أواخر القرن التاسع الهجري ، تحت نظر شخص من مصر شافعي المذهب[٤] .

١٠ ـ وظيفة البوابين في الحرمين الشريفين :

صاحب هذه الوظيفة يسمى بواباً ، وكان المسجد الحرام قد اتسع في العصر المملوكي ، وكثرت أبواب ه حيث أصبح عددها تسعة عشر باباً[٥] ، ومعنى هذا أن هناك تسعة عشر

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٠٦ .

(٢) من الإنعامات والأعطيات على فراشي الحرم المكي ما حدث عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م ، حين دعا الخطيب محب الدين النويري ، للسيد جازان على مظلة زمزم ، على عادة أمراء مكة ، فأمر جازان بخمسة دنانير للفراشين وخدام الدرجة ، وفي عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م ، قدم ناظر الخواص إلى مكة ، وفرق صدقته ، فنال الفراشون أشرفيا لكل منهم . عبد العزيز بن فهد ، بلوغ القرى ، ص ١٢٥ – ١٧٤ .

(٣) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦١ ، وذكر ابن فرحون أن الفراشين الذين أدركهم اثنا عشر فراشاً ، كما أشار إلى أن الفراشين فئتان إحداهما مقابل أجر ، والأخرى تمارس العمل تطوعاً . ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٩٨ .

(٤) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦١ .

(٥) وكان للمسجد الحرام أربعة أبواب في الجانب الشرقي (باب بني شيبة ، وباب الجنائز ، وباب العباس ، وباب علي) ومن الجانب الغربي ثلاثة أبواب (باب العمرة ، وباب إبراهيم ، وباب الحزورة) ، ومن الجهة الشمالية خمسة أبواب (باب الدريبة ، وباب سويقة ، وباب دار الندوة ، وباب الزيارة ، وباب العجلة) ، وفي الجانب الجنوبي سبعة أبواب (باب بازان ، وباب البغلة ، وباب الصفا ، وباب أجياد ، وباب المجاهدية ، وباب عجلان ، وباب أم هانئ) . الأزرقي ، أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٩٢ ، ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ١٤٧ ، ابن جبير ، الرحلة ، ص ٨٢ .

بواباً ، مهمتهم ملازمة الأبواب ليلاً ونهاراً وعدم التغيب عنها إلا للضرورة[١] ، وبالنسبة لما قد يناله صاحب هذه الوظيفة ، فقد نصت وثيقة وقف الأشرف شعبان ، على تخصيص مبلغ ألفي درهم للبوابين بالحرم المكي ، تقسم بينهم بالسوية ، ولم تحدد الوثيقة عددهم ، أَمَّا ما يخص كل واحد منهم[٢] ، ففي عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م أصدر الأشرف برسباي مرسوماً به تنظيم إداري بالنسبة للعاملين بهذه الوظيفة ، كما تضمن مرسوم الأشرف برسباي أن يقرر لكل بواب عشرة أشرفية سنوية ، تحمل من أوقاف الحرمين الشريفين[٣] ، هذا عدا ما قد ينالهم من الصدقات الواصلة إلى مكة ، ففي عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م ، وصل إلى مكة محمد بن السلطان قانصوه الغوري وفرق صدقته بمكة ، نال البوابون منها ثمانين ديناراً[٤] .

أَمَّا بوابو المسجد النبوي : فهم القائمون على خدمة أبواب المسجد النبوي ، ومن الذين اشتغلوا في هذه الوظيفة في فترة هذه الدراسة عبد الله الزيلعي الذي كان بواباً على باب الرحمة (أحد أبواب المسجد النبوي)[٥] ، وسليمان بواب باب باب السلام[٦] ، وأحمد بن محمد اليماني ثم المدني البواب[١] ، وقد حددت

---

(١) في عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م ، وصل إلى مكة مرسوم من السلطان الأشرف برسباي ، صحبة ركب الحاج أمر فيه أن تسد أبواب المسجد بعد انقضاء الموسم إلا أربعة أبواب ، وهي باب السلام ، وباب العمرة ، وباب إبراهيم ، وباب الصفا ، فروجع السلطان في ذلك فوصل مرسوم أن تفتح الأبواب كلها ، ويعزل البوأبو ن القدامى ، وكانوا من القضاة والفقهاء ، وألزم البواب المعين ملازمة باب الحرم ، ويتعهد بكنسه ورشه وتنظيفه . المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٥٤ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٦٤٥ ، عبد العزيز بن فهد ، غاية المرام ، ج٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٠٦ .

(٣) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٦٤٦ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ج١ ، ص ٧١٦ .

(٤) عبد العزيز بن فهد ، بلوغ القرى ، ص ٢٢٣ .

(٥) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٤٤١ .

(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٩١ .

وثيقة وقف الأشرف شعبان لأصحاب هذه الوظيفة مرتبات بلغت ألفاً ومائتي درهم نقرة سنويّا ولم تحدد الوثيقة عددهم ، أو ما يخص كلاّ منهم ، ومن الوظائف التي استحدثت في المسجد النبوي ، ولم يكن لها نظير في الحرم المكي ، وظيفة حراس نعال المصلين على كل باب من أبواب المسجد النبوي ، وحددت الوثيقة أجرهم بثمانمائة درهم ، وحدد أجر كل منهم بمئتي درهم سنويّا ، وهذا يعني أن عدد أبواب المسجد النبوي في فترة الوثيقة كانت أربعة أبواب(٢) .

١١ ـ الوقادة في الحرمين الشريفين : متولي هذه الوظيفة هو الوقاد ، ومهمته وضع الزيت في القناديل التي بحرمي مكة والمدينة وإشعالها لتضيء جوانبهما ليلاً ، وممن شغل هذه الوظيفة في الحرم المكي ، ياقوت بن عبد الله المكي(٣) ، وكان للوقادين شيخ مسؤول عنهم ، يعرف بشيخ الوقادين ، ينظمهم(٤) ، وكان في المسجد الحرام مكان لآلات الوقادة ، يسمى بيت الوقادين(٥) ، وقد نصت وثيقة الأشرف شعبان ، على أن يصرف للوقاد مبلغ خمسمائة درهم سنويّا ، ولم تشترط عليه شروطاً سوى إيقاد المسارج في الحرم والمشاعل في الطرق المؤدية إليه(١) .

---

(١) توفي سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٢٦٧ .

(٢) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٢٤ .

(٣) ياقوت بن عبد الله المكي ، المعروف بالحزام ، كان وقاداً بالمسجد الحرام ، وقد باشر هذه الوظيفة خمساً وخمسين سنة ، وعرف بمهارته فيها ، فكان يضع في القناديل زيتاً ، يقدر أنه يكفي إلى وقت طلوع القمر ، في الليالي التي يتأخر فيها طلوعه من أول الليل ، فلا يفرغ الزيت إلا في ذلك الوقت ، توفي عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٤٢٥ .

(٤) ممن شغل هذا المنصب ، محمد الشهيب بن يوسف بن غليظة توفي عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م . عبد العزيز بن فهد ، بلوغ القرى ، ورقة ٢٧ .

(٥) بيت الوقادين بالمسجد المكي ، كان خلف سقاية العباس ، توضع به الآلات الخاصة بالوقادة كالعيدان الخاصة بالقناديل ، والقصب المجدف الذي يطفأ به المصباح ، والزيت الذي يستخدم في الوقود والقناديل

أَمَّا الوقادة في المسجد النبوي ، فقد كان يقوم بمهام هذه الوظيفة ، خدام المسجد والحجرة النبوية ، كما أشار إلى ذلك السخاوي ، بقوله : « ومن وظائفهم ... تنزيل القناديل وتعليقها للتعمير والوقود وغسلها أو مسحها ، وإسراج ما يوقد منها سحراً ، والدوران بعد صلاة العشاء بالقناديل ، لتفقد من يخشى من مبيته ... »[(٢)] ، ولم يهمل الواقفون ضمن أوجه الصرف في حجج وقفهم : الصرف على المصالح التي تصب على القائمين بمهام هذه الوظيفة ، ففي حجة وقف الجمالي أبي المحاسن يوسف ، ناظر الخواص الشريفة ، تحديد صرف : ستة دنانير من الذهب الظاهري ، وذلك في كلفة تعمير سبعة قناديل بباب الحجرة الشريفة في كل ليلة من ليالي السنة ، ولمن يتولى غسل القناديل المذكورة ، وتنظيفها ، وتعميرها بالماء والزيت ، وإيقادها وإطفاءها على العادة في ذلك[(٣)] .

جـ - النفقات الدينية (الإنفاق) :

كانت قوة الشعور الديني لدى سلاطين المماليك ، وأمرائهم ، وأعيانهم ، حافزاً على إنفاقهم على مصالح الحرمين الشريفين وأهاليهما ، وتمثل هذا الإنفاق في الهبات والأعطيات والصدقات ، كما تمثل في الأوقاف التي وسعت ضمن أوجه صرفها كل وجوه البر والإحسان على من بالمدينتين المقدستين ، وكانوا يفعلون ذلك كله رغبة في عمل الخير واكتساب مثوبة الله [(٤)] ، وحرصاً على محبة

الزجاج والحراريق التي توقد على المقامات ، وكان عدد القناديل في المسجد الحرام ثلاثة وتسعين قنديلاً ، وفي رمضان يزاد ثلاثون قنديلاً حول المطاف ، وفي موسم الحج يزاد في عدد القناديل ما يزاد في رمضان . الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ، البلوي ، تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٠٦ ، ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف ، ص ٢١٦ .

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٠٦ .

(٢) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦٣ ، ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ٢٠٣ .

(٣) حجة وقف الجمالي أبي المحاسن يوسف ، ناصر الخواص الشريفة ، رقم الوثيقة (١٠٥) ، دار الوثائق القومية ، سطر رقم ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ ، للمزيد من الاستفادة . انظر : جدول فهرس الوثائق في نهاية هذه الدراسة .

(٤) حاول ابن خلدون أن يعطي تعليلاً لهذه الظاهرة التي لفتت نظره في كثرة الأوقاف في هذا العصر واقترانها بعدة أسباب منها الإكثار من عمل المبرات طلباً للمثوبة . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٠٠ .

الناس ودعائهم لهم بالأجر والثواب ، هذا بالإضافة إلى التخفيف عن الناس ، وخاصة في سنوات الجفاف التي تعز فيها الأقوات ويعم الغلاء ، فضلاً عن ذلك تحصين أموالهم وممتلكاتهم من المصادرات والضرائب ، والظهور بمظهر أهل الخير والإحسان ، وكان هذا الإنفاق أيا كان قدره ، أو وجهة صرفه ، مرتبطاً في أدائه أو منعه ، بارتفاع وانخفاض منسوب مياه النيل ، الذي يترتب عليه انخفاض أو ارتفاع الأسعار في كل من مصر والمدينتين المقدستين .

بيد أن هذه الأوقاف قد أسهمت بريعها الوفير في مساعدة القاطنين والعاجزين والمنقطعين والمجاورين بالحرمين الشريفين ، وفي عمل الخير الدائم باعتبار الوقف صدقة جارية(١) ، وخير دليل على هذا الإنفاق الوثائق الوقفية التي وجهت جل ريع صرفها في كل وجه من أوجه البر والقربات وكان لذلك أثره البالغ على أهالي الحرمين الشريفين ومن جاور بهما .

وواضح من التشريعات الإسلامية أنها تهدف إلى تحقيق التكافل في المجتمع الإسلامي ، وإلى رفع مستوى المعيشة بين الأفراد ، وإلى الحرص على أن تمتلئ قلوب المسلمين بالحب والصفاء ، وتبتعد عن الكراهية والبغضاء .

وقد أدت النفقات الدينية دورها لتحقيق هذه الغايات في المدينتين المقدستين وتمثلت هذه النفقات في الصدقات والأعطيات والمعونات ، التي كانت ترسل إلى مكة والمدينة في أوقات الأزمات والمجاعات(٢) ، بطريقة غير منتظمة ، وفي ريع الأوقاف الذي كان وصوله للمدينتين بانتظام في معظم الأحوال ، نقدًا أو عينًا(٣) .

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٣٤، عبد اللطيف إبراهيم، وثائق الوقف على الأماكن المقدسة، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٢) وقد سجلت المصادر التاريخية التي عنيت بتاريخ المدينتين المقدستين في فترة هذه الدراسة : فترات الأزمات والمجاعات وما بصاحبها من ارتفاع الأسعار والغلاء . الفاسي ، شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢٧١ ، العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٩٣ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ج١ ، ص ٦٢٧ .

(٣) نصّت وثائق الوقف ضمن أوجه الصرف بها إن كان الصرف نقداً أو عيناً حسب ما يشترطه الواقف ((...يصرف الناظر الشرعي لمصالح الحرمين الشريفين والفقراء والمساكين والمجاورين بهما على ما يراه الناظر في ذلك ...)) حجة وقف شمس الدين أبي عبد الله، المؤرخة في ٢٥ من شعبان سنة ٨١٤هـ، رقم الوثيقة (٧٦١ق) أوقاف، كما تشير

كما ساعد على تحقيق تلك الأهداف الإسلامية بطريقة غير مباشرة ما خصّص من الأوقاف للصرف على المنشآت العلمية والاجتماعية والصحية ، وما جُعل للمحتاجين وطلبة العلم والمعلمين ، وما كان يرسل من القمح سنويا إلى الحجاز لعمل الدشيشة لإطعام أهل العلم في الربط والزوايا والمدارس ، والذي يشير إلى كميته السخاوي قائلا : بلغ مقدار الإنفاق على عمل الدشيشة في المدينة المنورة وحدها نحو سبعة آلاف إردب وخمسمائة تحمل كل سنة [(١)] .

هذه الموارد وغيرها رفعت مستوى المعيشة في المدينتين المقدستين ، وأوجدت وظائف كثيرة وأنعشت الأسواق ، وخفضت الأسعار ، وعمّ الخير أهالي الحرمين ، والمجاورين ، بهما والوافدين إليهما ، وخاصة الفقراء والعاجزين والمنقطعين والأرامل واليتامى والمساكين[(٢)] .

ثانيًا : أثر الأوقاف على الحياة الاجتماعية :

وفرت الأوقاف حياة كريمة لجميع طبقات المجتمع المكي والمدني ، وقدمت الرعاية الصحية للمرضى والعجزة والمحتاجين ، وضمنت للفقراء والمساكين من أهل المدينتين المقدستين ولكل من يجاور فيهما ، بل لمن يحج أو يعتمر ، مستوى المعيشة اللائق بالإنسان الذي كرّمه الله ، وفيما يلي تفصيل هذا الإجمال .

حجة وقف الزيني عبد الباسط بنصه ((... يجهز كل سنة ثلاثين - مثقالا - من الذهب ... ويصرف في مصالح السبيل المعروف بإنشاء الواقف بحدرة المعلا بمكة المشرفة ... والسبيل المعروف بإنشاء الواقف بباب السلام بالمدينة المشرفة ...)) حجة وقف الزيني عبد الباسط ، المؤرخة في ٢١ من محرم سنة ٨٢٩هـ ، رقم الوثيقة (١٨٩ج) ، أوقاف .
انظر : جدول فهرس الوثائق في نهاية هذه الدراسة .

(١) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٤١١ .

(٢) عبد اللطيف إبراهيم ، وثائق الوقف ، ص٢٥٢ .

١ - توفير الحياة الكريمة لجميع طبقات المجتمع المكي والمدني :

أ - **أمراء الحرمين** : كان أمراء مكة من الحسنيين[١] ، وأمراء المدينة من الأشراف الحسينيين ، وقد شكلت لهم الأوقاف مورداً مهمّا في الإنفاق عليهم ، ولتصريف شؤون إمارتهم ، يضاف إلى هذا ما نالوه من الهبات والعطايا والأموال في صورة إعانات مالية ، أو عينية ، فالأموال التي كانت تصل إليهم من السلاطين والملوك ، والأمراء ، وكبار رجال الدولة من مصر ومن سائر البلاد الإسلامية كثيرة ، ولم تكن لها قاعدة تنظمها أو تحكمها ، لكنها غالباً ما تصل إليهم في أوقات الرخاء والشدة ، ولا سيما إن كانت لأمن الحجاج وراحتهم وتسهيل أداء مناسكهم[٢] ، وإن كانت مرتبطة إعطاءً ومنعاً برضا السلاطين وسخطهم عليهم ، فكانت تصرف مع رضاهم وتحبس مع عدمه[٣] ، ويظهر ذلك من خلال الوثائق الوقفية ، فحجة وقف السلطان الأشرف شعبان قد خصت في أوجه صرفها أميري الحرمين بكثرة نفقاتها عليهما ، وتتضح هذه النفقات وكثرتها من خلال ما حددته هذه الوثيقة ، فقد خصت أمير مكة[٤] بمائة وستين ألف درهم نقرة سنويّا ، لكن الواقف اشترط على أميرها ألا يحصّل شيئاً من المكوس على سائر الحجاج ، أو المقيمين والزائرين ، أو المجتازين برّاً أو بحراً وألا يأخذ شيئاً من المكس على ما يباع بأسواق مكة ، وألا يتناول شيئاً من المكوس على المزروعات من

---

(١) الأشراف الحسنيّون : من أبناء محمد بن جعفر الحسني . محمد بن سليمان ، البرادي ، الدرة السنية ، ص ٢٢ مساعد بن منصور ، جداول أمراء مكة ، ص١٨ ، مالكي ، بلاد الحجاز ، ص ١٠٩ .

(٢) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣٨٣ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٩٧ .

(٣) بعث أبو نمي أمير مكة وفداً إلى مصر مصحوباً بعدد من أشراف الحجاز برفقة ابنه وقابلوا السلطان منصور قلاوون ، فأكرمهم وأغدق عليهم كثيراً من الهبات والعطايا ، كما صرف لهم ما كان موقوفاً من أوقافهم . ابن الفرات ، تاريخه ، ج٧ ، ص ٢٥٢ .

(٤) أمير مكة في فترة الوثيقة هو أحمد بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي ، ولي إمرة مكة شريكاً لأبيه ، ثم انفرد بالإمرة سنة ٧٧٤هـ ، وأشرك ابنه محمد معه سنة ٧٨٠هـ ، وتوفي ليلة السبت ٢٠ من شعبان سنة ٧٨٨هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٨٧ .

الفواكه والخضروات ، وألا يأخذ شيئاً من المكس على الأعسال والأدهان ، وألا يتناول شيئاً من المكس على الحيوانات كالإبل والبقر والغنم ، ولا مكس على ما يحضر إلى مكة من البر أو البحر ، ولا على عشر النخل الذي في ولايته ، وألا يحصلها بواسطة أي شخص من معاونيه لا وكالة ولا بدالة ولا عرافة ولا رياسة ، ولا أحد من ذريته ، ولا من نوابه ومباشريه أو عبيده(١) .

كما خصصت الوثيقة لأمير المدينة(٢) النبوية مبلغ مائة ألف درهم سنويًا ، بشرط ألا يتناول شيئاً من المكوس التي حظرت على أمير مكة(٣) .

وقد سار الأمراء على نهج سلاطينهم ، فحجة وقف فخر الدين يعقوب بن السلطان أبي بكر بن أيوب بعد أن تناولت الصرف من ريع وقفها على مصالح الحرمين الشريفين وأهاليهما تناولت من جملة أوجه صرفها : الصرف على الأشراف الهاشميين والبكريين(٤) المقيمين بمدينة سيدنا رسول الله ﷺ(٥) .

أَمَّا وثيقة بدر بن رزيك فقد وسعت بمنافع وقفها السادة الأشراف الحسينيين المقيمين بمكة شرفها الله تعالى ، والحسينيين المقيمين بمدينة رسول الله ﷺ(٦) .

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ٨٩ ، ٩٠

(٢) أمير المدينة فترة الوثيقة هو : هبة بن جماز بن منصور ، ويعود نسبه إلى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الحسيني أمير المدينة في سنة ٧٧٣هـ ، ومات في سنة ٧٨٢هـ . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٩٥ .

(٣) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١١٧ .

(٤) البكريون : نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد ارتحل بعضهم إلى مصر فأقاموا بها وتناسلوا على أرضها ، وكان بالمدينة المنورة شخص منهم يقال له جمال البكري ، ولعل نسبتهم إلى الأشراف يعود إلى إدخال أبناء البطون في الأوقاف الحشرية ، وهذا يتنافى مع أصول وقواعد النسب الشريف . ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٨٧ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٤٢٩ .

(٥) حجة وقف فخر الدين يعقوب بن السلطان أبي بكر بن أيوب ، المؤرخة في ٥ من محرم سنة ٦٦٢هـ ، رقم الوثيقة (٨) محفظة (٢) ، دار الوثائق القومية .

(٦) حجة وقف بدر الدين بن رزيك ، المؤرخة في ١٧ من محرم سنة ٦٦٥هـ ، رقم الوثيقة (٩) ، محفظة (٢) ، دار الوثائق القومية .

ب - **طبقة العلماء وأرباب الوظائف بالحرمين الشريفين** : أسهمت الأوقاف في ضمان حياة كريمة للعلماء ، فأنفقت على رواد العلم الشيء الكثير ، حيث خصصت لهم الجوامك الشهرية ، والسنوية ، حتى يتفرغوا لتحصيل معارفهم ونشرها من خلال حلقاتهم العلمية الرائدة بحرمي مكة والمدينة ، وسائر الأمصار الإسلامية ، و إلى هذا أشارت وثائق الوقف ، فقد حددت حجة وقف السلطان الأشرف شعبان ، الصرف على قاضي مكة المكرمة بألف درهم نقرة سنويًا ، وكذلك خصصت ألفين وخمسمائة درهم نقرة تصرف على مشايخ المذاهب الدينية شريطة أن يتصدروا للاشتغال بالعلم الشريف ونشره ، وإحياء معالم الدين على عادة أمثالهم[1] وخصصت لقضاة المدينة النبوية وعلمائها المشتغلين بالعلم والمتصدرين لعلومه[2] وجها من أوجه صرفها .

ج - **طبقة الأهالي والمجاورين** : بلغت عناية الواقفين بأهالي الحرمين ومجاوريهما مبلغاً عظيماً ، فكثرت أوقافهم الواسعة عليهم ، إضافة إلى العديد من الصدقات التي كانت تفد إليهم أوقات الشدة والرخاء ، وقد أدى ذلك إلى اطمئنان الناس على أرزاقهم وسائر أمور معايشهم ، فتفرغوا لعبادتهم ، وتجارتهم ، وانصرف بعضهم إلى مدارسة العلم وقراءة القرآن وإقرائه لغيرهم ، وكانت أوقاف الدشيشة الكبرى من قبل أهل الخير كالسلطان جقمق[3] ، والسلطان قايتباي ، والسلطان الغوري لها أثر في ذلك ، ذكر السخاوي أن السلطان جقمق : « قرر لأهل الحرمين دشيشة للفقراء في كل يوم ، ولكثير منهم رواتب الذخيرة في كل سنة ، تحمل إليهم من مائة دينار إلى عشرة أو أكثر من ذلك ، وقراءة البخاري بمكة ، وما يفوق الوصف مما كثر الدعاء له بسببه ... »[4] .

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص١٠٠ .

(٢) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شبعان ، ص١٢١ .

(٣) حجة وقف السلطان أبي سعيد محمد جقمق ، المؤرخة سنة ٨٥٣هـ ، رقم الوثيقة (١٠٨) محفظة (١٧) ، دار الوثائق القومية ، والتي قام بنشرها جرجس ميخائيل في ملاحق رسالته للماجستير ، كلية الآداب ، القاهرة .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٧٣ ترجمة رقم ٢٨٧ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ج٢ ، ص ٦٩٦ .

وقد أشارت حجة وقف السلطان قايتباي بالصرف على تجهيز سماط لعمل الدشيشة والبر بالمدينة الشريفة[١] ، وكما أشار السمهودي إلى ذلك بقوله : « ... وقد شرعوا في عمارة سبيل وفرن وطاحون ، ومطبخ للدشيشة ، ووكالة ذات حواصل في الدور التي اشتراها قبل ذلك السلطان من دور العباسة ... ثم كتب إلى بعض الثقات بتحصيل ريع الأماكن التي اشتراها بالقاهرة ، وأن متحصلها سبعة آلاف إردب وخمسمائة إردب من الحب كل سنة ... فصرف لكل شخص من المقيمين من الحب ما يكفيه بحسب عدة عياله لكل فرد سبع إردب مصري ... وسوى في ذلك بين الصغير والكبير ، والحر والعبد ... »[٢] .

وكان لكميات القمح التي ترسل إلى الحرمين لعمل الدشيشة أثرها على أهالي الحرمين والمجاورين ، والفقراء والمساكين ، وطلبة العلم والعاجزين ، والأرامل واليتامى والمنقطعين ، فقد سعدوا بها وزادتهم محبة في واقفيها فضلاً عن الدعاء لهم بالمثوبة والمغفرة والرضوان ، لأنها خففت عليهم أعباء الحياة ، بالإضافة إلى خفض الأسعار على المأكولات كالقمح والشعير والزيت .

ومن الحجج الوقفية التي عنيت بهؤلاء : حجة وقف السلطان الناصر فرج بن برقوق ، وقد جعل من أوجه صرفها : الإنفاق على الفقراء والمساكين والأرامل ، والأيتام والمحتاجين والمجاورين ، والمقيمين ، وفي تسبيل الماء ، وإطعام الجائعين ، وكسوة العرايا والمقلين ، وستر عورات الضعفاء والعاجزين ، ويفرق ذلك على الجميع نقداً ، أو عيناً على ما يراه الناظر في ذلك ويؤدي إليه اجتهاده[٣] .

وعينت حجة وقف السلطان برسباي من أوجه الصرف فيها : شراء ثمانمائة قميص ، تحمل في كل سنة صحبة الركب الشريف ، وتوزع على فقراء الحرمين والمجاورين لهما[٤] .

(١) حجة وقف السلطان قايتباي ، المؤرخة في ١٥ من ذي الحجة سنة ٨٩٥هـ ، رقم الوثيقة (٨٩٠ق) أوقاف .

(٢) السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤٤ – ٦٤٥ .

(٣) حجة وقف الناصر فرج بن برقوق ، المؤرخة في ٧ من محرم سنة ٨١٢هـ ، رقم الوثيقة (٦٦) محفظة (١١) ، دار الوثائق القومية ، سطر ٥١٠ – ٥١١ .

(٤) حجة وقف السلطان برسباي ، المؤرخة في ١٦ من جمادى الآخرة سنة ٨٢٧هـ ، رقم الوثيقة (٣٨٠ ق) أوقاف ، سطر رقم ١٧٦ – ١٧٧ .

كما سار الأمراء على نهج سلاطينهم في هذا الصدد فحرصوا على وقف ما يحقق السعادة لأهالي الحرمين ، فوقفوا عليهم أوقافاً كافية لمتطلبات حياتهم ، ومن ذلك حجة وقف سيف الدين بكتمر الجوكندار ، وقد خصص الواقف من خلالها صرف ريع الربع لأهالي الحرمين والمجاورين والمنقطعين ، وعلى أصحاب الحاجة من الفقراء والمعوزين ، وطلبة العلم ، وكل أوجه من وجوه الخير لهؤلاء ، ويتولى صرف ذلك الناظر على ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده[١] .

ولم ينس الأمير أحمد ، الشهير بابن الخطابي أن يخصص من أوجه صرفه في حجة وقفه : أن يكون لأهالي الحرمين الشريفين ومن بهما من الفقراء والمساكين وغيرهم مبالغ نقدية كبيرة ، توزع بالسوية بين أهالي الحرمين[٢] .

وقررت حجة وقف الأمير يشبك بن مهدي الدويدار ، أن يكون من أوجه صرفها : ما ينفق على الفقراء والمساكين بالمدينة النبوية فضلاً عن تحديد مبلغ نقدي على تحصيل بُر طيب يعمل به قمحية تطبخ بلحم ولبن وقمح وتوزع يوميّا على سائر الفقراء والمساكين والمحتاجين وطلبة العلم وذوي الحاجات[٣] .

واشترطت حجة وقف أسنبغا بن عبد الله الطياري تعيين مبلغ ألف درهم شهريّا تصرف على أهالي الحرمين في إطعام طعام ، أوتسبيل ماء ، أو كساء عار ، على ما يراه الناظر أيها أنفع لذوي الحاجات ، وما يؤدي إليه اجتهاده[٤] .

وكان للأربطة دورها المهم في خدمة أهالي الحرمين الشريفين والمجاورين وغيرهم وقد عضد من دور هذه الأربطة ، وزاد من فعاليتها الأوقاف التي أثرت تأثيراً إيجابيّا ومباشراً على سكان هذه الأربطة والمتعبدين فيها ، والدارسين في

---

(١) حجة وقف سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير خاندار ، المؤرخة في ١٤ من محرم سنة ٧٠٧هـ ، رقم الوثيقة (٢٠) محفظة (٤) ، دار الوثائق القومية ، سطر ١٢٧ ، ١٢٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ٥٧ .

(٢) حجة وقف الأمير أحمد ، الشهير بابن الخطابي ، المؤرخة في ٢٠ من رجب سنة ٨٦٩هـ ، رقم الوثيقة (١٤٥) ، محفظة (٢٢) ، دار الوثائق القومية .

(٣) حجة وقف الأمير يشبك من مهدي الدويدار ، المؤرخة في ٩ من ربيع الآخر سنة ٨٨٥هـ ، رقم الوثيقة (٦٦ج) ، أوقاف .

(٤) حجة وقف أسنبغا بن عبد الله الطياري ، المؤرخة في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٨٣٣هـ ، رقم الوثيقة (٨٢) محفظة (١٣) ، دار الوثائق القومية .

حلقاتها العلمية المقامة في أروقتها ، وتختلف شروط الواقفين من رباط لآخر ، فبعضها كان الانتفاع به عامّا لسائر المسلمين من كافة الأجناس والمذاهب ، وبعضها الآخر يحدد عدد الساكنين ، أو مدة إقامتهم ، وكانت هناك أربطة للرجال وأخرى للنساء[١] ، ومنها ما كان للأرامل المنقطعات الفقيرات بالمدينتين المقدستين[٢] ، أو الشافعيات ، أو غير المتزوجات أو المطلقات ، وقد سكن الحجاج بعض الأربطة في مكة والمدينة ، وسكنها في باقي أيام السنة الفقراء من بلد صاحب الوقفية ، ويعتبر الاهتمام بالأرامل[٣] في المدينتين المقدستين ، من أهم عوامل الرعاية الاجتماعية وتوفير الحياة الكريمة التي لم تغفلها الأربطة ، فضلاً عن رعايتها العلمية حيث وفرت هذه الأربطة حياة كريمة للطلاب .

وقد خصصت حجة وقف خوند بركة أم السلطان شعبان (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)[٤] ، من أوجه صرفها النصف الثاني من جملة وقفها على الفقراء والمساكين والأرامل

---

(١) انظر : رباط النساء ، أو الظاهرية نسبة إلى عائشة بنت علي بن عبد الله بن عطية ، الشهيرة بالظاهرية ، وفاتها ليلة الخميس ١٦ من جمادى الأولى سنة ٨٣٧هـ ، ورباطها أسفل مكة . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٧٤ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١٢ ، ص ٧٧ .

(٢) انظر : حجة وقف خوند بركة ، المؤرخة في ٢٥ من ذي القعدة سنة ٧٧١هـ ، رقم الوثيقة (٤٧) محفظة (٧) ، دار الوثائق القومية ، وفيها ما خصص على النساء الأرامل المنقطعات بالمدينتين المقدستين ، ومثل رباط فاطمة ، وتدعى ستيتة بنت ناصر الدين محمد ابن شهاب الدين أحمد المعروفة بالمسكينة ، وهذا الرباط بأجياد ، وقفته على النسوة الفقيرات الغريبات سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م . ابن فهد ، الدر الكمين ، ورقة ٢٠٦ .

(٣) انظر : رباط أم الكامل ابنة الشريف عجل بن رميح ، أنشأته بأجياد سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م ، وأوقفته على النساء والأرامل والمنقطعات . عبد العزيز بن فهد ، غاية المرام ج٣ ، ص ٢٩٢ . وبالنسبة لأربطة النساء بالمدينة ، فقد كان منها الرباط الذي أنشأته زوجة السلطان أشرف إينال حين حجها في عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م وأنشأت ميضأة في الرباط نفسه وخصصته للنساء المنقطعات والأرامل . ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٦٠ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ص ٧٠٣ . ومن أربطة المدينة رباط قايتباي وهو ضمن منشآته الخيرية بالمدينة التي ضمت مدرسة وسكنها طلبة العلم ، ورباط ابن الزمن المنسوب إلى صاحبه محمد بن عمر بن محمد الخواجا الشمس بن السراج المعروف بابن الزمن (ت٨٩٧هـ) وترددت المصادر في تاريخ إنشائه ، ويبدو أنه أنشئ مابين سنتي ٨٨٢- ٨٨٨هـ ، وهي الفترة التي قضاها بالحرمين الشريفين ، وقام فيها بعمائر قايتباي ، وتولى مشيخته الكثير من العلماء منهم كما يقول السخاوي ابن عُطيف وغيره . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ١٧٣ ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٢٦٩ – ٢٧٠ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤٢ – ٦٤٣ .

(٤) ابن تغري بردي ، الدليل الشافي ، ج١ ، ص ١٩٠ برقم ٦٦١ ، وفيها ترجمتها .

بالمدينتين المقدستين ، واشترطت في الوثيقة [١] أن يقسم نصفين بالسوية : « ... فالنصف من ذلك يصرف إلى الفقراء والمساكين والأرامل من النسوة المقيمات ، خاصة بحرم مكة شرفها الله تعالى وعظمها ، والنصف الثاني يصرف إلى الفقراء والمساكين من النسوة المقيمات بحرم المدينة على الحال بها أفضل الصلاة والسلام والرحمة ، يفرق الناظر ذلك في كل من الحرمين[٢] على المذكورين على ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده ، فإن تعذر الصرف إلى الفقراء والمساكين المقيمين بأحد الحرمين من النسوة صرف إلى النسوة المقيمات بالحرم الآخر ، فإن تعذر الصرف إليهما جميعاً صرف إلى الفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيث ما وجدوا فإن عاد إمكان الصرف إلى ما تعذر عاد الصرف إليه وقدم على غيره ، يجري الحال في ذلك كذلك وجوداً وعدماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين »[٣] .

وللأوقاف أثرها الطيب على مجاوري الحرمين الشريفين . وقد شجع ذلك بعضهم على المجاورة أكثر من مرة مثل محمد بن أحمد بن علي المصري ، (ت٧٩٢هـ/١٣٨٩م) الذي تعدد قدومه إلى الحجاز قاصداً الحج والمجاورة ، لذلك لقب بحمامة الحرم[٤] وجاراه في ذلك علي بن محمد المصري (ت٨٢٧هـ/١٤٢٣م) وهو المجاور الزاهد بحرم رسول الله ﷺ[٥] ، ومن المجاورين من كان صاحب

---

(١) حجة وقف خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان ، المؤرخة في ٢٥ من ذي القعدة سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م ، رقم الوثيقة (٤٧) ، محفظة (٧) دار الوثائق القومية . انظر : جدول فهرس الوثائق في نهاية هذه الدراسة .

(٢) حجة وقف خوند بركة ، رقم الوثيقة (٤٧) دار الوثائق القومية ، سطر رقم ٨٦ ، ٨٥ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ .

(٣) حجة وقف خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان ، رقم الوثيقة (٤٧) محفظة (٧) ، دار الوثائق سطر رقم ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢ .

(٤) هو : شمس الدين محمد بن أحمد بن علي المصري ، كان معنياً بالعلم ، وسمع الحديث ، ومسموعاته كثيرة عن العلماء ومشاهيرهم ، وجاور كثيراً بالحرمين الشريفين ، وكان يسكن الناصرية بين القصرين ، وصحبه المؤرخ ابن العماد الحنبلي ، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٩٢هـ . ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٦ ، ص ٣٢٤ .

(٥) هو : علي بن محمد بن سند المصري ، كان بمكة ثم سافر إلى مصر في موسم حج سنة ٨١٨هـ ، ثم توجه إلى مكة مع الحجاج المصريين في سنة ٨٢٠هـ ، حضر دروساً كثيرة بمصر ، وكان ملماً بمسائل الفقه ، وتاجر بمكة ، ووقف كتبا اقتناها ، وجعل مقرها برباط ربيع بمكة ، وتوفي بها في ربيع الأول سنة ٨٢٧هـ . العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٢٣١ – ٢٣٢ برقم ٣٠٠٤ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ٣٠٧ ، برقم ١٠١٨ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٦١٢ .

مركز مرموق في بلده قبل المجاورة ، ومن هؤلاء أحمد ابن آل ملك الجوكندار (ت٧٩٣هـ/١٣٨٩م) وهو الذي أحسن إلى الفقراء ولبس زيهم[(١)] .

ولم تقتصر المجاورة على القادمين من خارج مكة والمدينة بل إن المكي كان يجاور بالمدينة ، والمدني كان يجاور بمكة ، ومنهم العلماء الذين اشتهروا بحلقاتهم العلمية الزاخرة بكل من حرم مكة أو المدينة ، فمن أسرة الطبريين المشهورين بعلمهم كان أحمد بن محمد الطبري المكي (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م) الذي كان مجاوراً بالمدينة لسنين طويلة[(٢)] .

٢ - توفير الرعاية الصحية لأفراد المجتمع المكي والمدني :

أ - **الرعاية الصحية** : اهتم الواقفون بالرعاية الصحية ، باعتبارها وجهاً من وجوه الارتقاء بالحياة الاجتماعية ، وأثر الأوقاف كان واضحاً على (بيمارستان) كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وقامت أوقاف مصر بالدور الأكبر في علاج المرضى بالمدينتين المقدستين وارتقت بذلك مهنة الطب ، وارتفع مستوى الأطباء والممرضين ، وجميع من عملوا في الوظائف الطبية التي سيأتي ذكرها .

وأدت عناية الواقفين بالرعاية الصحية إلى ازدهار العلوم الطبية والصيدلة وما يتعلق بهما ، وحددت حجج الوقف ما يصرف على مصالح (البيمارستان) بما في ذلك إعادة ترميمه ، أو عمارته ، وكان بالبيمارستان

---

(١) هو : أحمد بن آل ملك بن عبد الله الجوكندار ، تأمر في أيام الناصر الكبير ، ثم تقدم في سلطنة حسن ، ثم تنقل في الولايات بغزة ، ثم رمى الإمرة ، ولبس زي الفقراء . وحج كثيرا ، وجاور إلى وفاته في جمادى الأولى سنة ٧٩٣هـ . ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج١ ، ص٤٢٢ ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٢٩٨ .

(٢) هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر ، القاضي زين الدين ، أبو الطاهر ابن قاضي مكة جمال الدين ، بن الشيخ محب الدين الطبري المكي ، ولادته سنة ٦٩٣هـ ، مسموعاته كثيرة ، وأجاز له جماعة من مشاهير علماء مصر ومكة ، سمع منه أبو اليمن الطبري ، وقطب الدين الحلبي وغيرهما ، وله محاضرة حسنة واشتغال بالعلم ، وأحسن الله إليه كثيراً بمصر ، وجاور بالمدينة ، وفاته بمكة سنة ٧٤٢هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١١٩ - ١٢٦ برقم ٦١٦ ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٥٩ برقم ٦٢٩ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٢٢٣ ، حوادث سنة ٧٤٢ .

تخصصات مختلفة ، منها ما هو للرمد أو الأمراض العقلية ، أو لمعالجة الجذام ، أو العناية بالعجزة[١] .

وقد عضدت الأوقاف المدارسة بالبيمارستان الإسلامي ، فضلاً عن تأليف الكتب الطبية والصيدلية .

وكان العلاج بالبيمارستان ، سواء في مكة ، أو المدينة ، عامّاً يدخلُه الفقيروالغني ، ويقيم به المرضى الفقراء ، وذوو الحاجة والعاجزون ، والمنقطعون من الرجال والنساء لمداواتهم وتستمر إقامتهم حتى برئهم أو شفائهم ، ويصرف لهم ما يلزمهم من الدواء ، ولم يفرق الواقفون بين مرضى البيمارستان ، فقد كان العلاج مكفولاً لجميع من يدخله ، أو يأتي إليه من سائر الناس ، من أهالي الحرمين ، أو غيرهم[٢] ،وكانت الخدمة الطبية تقدم من غير اشتراط لعوض من الأعواض ، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض ، بل لمحض فضل الله وطَوْله الجسيم ، وأجره الكريم .

وأمّنت الأوقاف النفقات لكل من يقوم بمصالح مرضى (البيمارستانين) في مكة[٣] والمدينة[٤] كالأطباء والكحالين ، والجراحين

---

(١) يقال إن أول من سن هذه الطريقة الخليفة المأمون إذ شيد في المدن الكبيرة منشآت علاجية متخصصة ، ووقف عليها الحوانيت والمسقفات للصرف عليها وعلى كل احتياجاتها من ريع وقفها ، القديس مظهر بن طاهر : كتاب البدء والتأريخ ، نشر بعناية : كليمان هوارد ، طبع باريس ، ص ٣٧ ، وقد ذكر ناجي معروف أن أول من أنشأ مستشفى متكاملاً وثابتاً في الإسلام هو الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، وعين له الأطباء ، وأنفق عليه ، ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٥م ، ص ٣٤ .

(٢) ابن دقماق ،الجوهر الثمين ،ص ١٧٤ ،السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،ص ٤٦٠ ،الفاسي ،العقد الثمين ،ج١ ،ص١٢٣ .

(٣) وقد ذكر أيضاً عمارة الشريف حسن بن عجلان لبيمارستان مكة بالجانب الشامي من المسجد الحرام وبالغ في وصفه وبما أحدثه فيه حتى يتم النفع به ، بل وقف ما عمره ، وما يستحقه من منافعه مدة تسع وتسعين سنة وأياماً متوالية " ... على الفقراء والمساكين والمنقطعين ، المرضى والمجاورين يأوون فيه ، ويؤوون إليه علوا وسفلاً ، وينتفعون بالإقامة فيه والارتفاق به انتفاع مثلهم بمثله ، لا يُزعج أحد منهم ولا يخرج منه بغير اختياره إلا بعد حصول العافية والشفاء ... إلخ" وانظر بقية شروطه التي بينت آثار وقفه على جميع من ارتاده ، أيضاً إدارته وحسن تنظيمه التي دلت على أنه كان يدار بطريقة حضارية . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٤٩ ، ص ٥٠٧ – ٥٠٨ ، ٤٩٦ ، الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٣٧ ، العقد الثمين ، ج٤ ، ص ١١٥ .

(٤) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦٥ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٦٥ ، أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، ج٤ ، ص ١١ .

أو الجرائحيين ، وطباخي الشراب والطعوم ، وصانعي المعاجين ، والأدوية والأكحال ، والمسهلات المفردة والمركبة ، وحددت وثائق الوقف ما يصرف على كل العاملين بالبيمارستانين من الفراشين والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن جرت عادة أمثالهم بذلك ، كما التزمت الحجج الوقفية بتوفيركل ما تدعو إليه حاجة المرضى كالأقداح والأواني والكيزان الخاصة بشربهم ، وزيت الإضاءة ، ومن قبل ذلك أغذية المرضى وكل ما يلزمهم ، بحسب ما تدعو إليه الحاجة ، لزيادة الأجر والثواب . ومن أهم حجج الوقف في هذا الصدد في تلك الفترة : حجة وقف السلطان الأشرف شعبان[1] ، فقد حدّد صاحبها أن يكون من أوجه صرف ريعها : توفير الرعاية الصحية الكاملة لمجتمعي مكة والمدينة وما يلزمهما جميعاً دون تفرقة بين المرضى ، سواء كانوا من السكان المقيمين ، أو من المجاورين أو الوافدين من الحجاج والزائرين وغيرهم من سائر المسلمين ، كل هؤلاء يوفر لهم الواقف الأطباء وسائر الموظفين بالبيمارستان ، القائمين على خدمتهم وعلاجهم ، إضافة إلى النفقات الجارية ، وحتى يظهر أثر ذلك ويعم نفعه على أكمل وجه من وجوه الرعاية الصحية للمرضى ، خصص الواقف مبلغ خمسة عشر ألفاً ومائتي درهم تكون ثمناً لشراء ستة وسبعين إردبّا من القمح وطحنه ، وإذا انخفض السعر وبقي شيء من هذا المبلغ صرف في شراء دقيق أو قمح ، وقد احتاط الواقف في توزيع هذه الكمية سواء كانت قمحاً ، أو دقيقاً ، فحدد في وثيقة وقفه : أن يوزع نصف إردب يوميّاً من يوم ١٣ من ذي الحجة حتى آخر المحرم من السنة التي بعدها ، وفي حالة زيادة الدقيق المترتب على انخفاض سعره تضاف هذه الزيادة إلى المدة المذكورة ليستفيد منها أكبر عدد من الفقراء عموماً وخاصة فقراء الحج في تلك الفترة وهي نهاية موسم الحج ، وعن بقية أيام العام فيصرف ناظر وقفه يوميّا سدس إردب إلى طباخ يتولى طبخه ويقوم بتوزيعه على ضعفاء الرجال والنساء ، والأرامل والأيتام ،

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ص ١١٥ .

وذوي الحالات المزمنة المقيمين بالبيمارستان[١] ، ولم ينس متطلبات هذا الطبخ ، فخصص للسمن سبعمائة وعشرين درهماً شهرياً .

ويتضح الاهتمام بالرعاية الصحية من نص وقفية السلطان برسباي ، فقد قرر من أوجه الصرف في وثيقته قائلاً : « ... فيصرف لثمن ثلاثة أسهم من أربعة وعشرين سهماً على مصالح البيمارستان الكائن بمكة المشرفة زادها الله تعالى شرفاً وتعظيماً ، المعروف لواقفه تغمده الله تعالى برحمته ، ومصالح الضعفاء الذين ينزلون به من الفقراء والمحتاجين على مايراه الناظر في الوقف المذكور»[٢] .

ولم يقتصر الإنفاق الطبي على الإنسان ، بل شمل الحيوانات والرفق بها ، والعناية بصحتها ، ووجدت الحيوانات اهتماماً ورعاية من الواقفين ، لأن المسلمين يستخدمونها في حلهم وترحالهم ، وفي أيام حروبهم أو سلمهم ، وكانت الوسيلة البرية الوحيدة لنقل الحجاج من عواصمهم الإسلامية ، وقد كان من الوظائف الملحقة بأمير الحاج : البيطري الذي يهتم بأمر الدواب وعلاجها ، ويحمل معه أدويتها وآلاتها ، إضافة إلى النعالات الخاصة بها ، وتتبعه الجرايات والأعمال التي تخصه بصددها[٣] .

ب - **الوظائف الطبية** : حرص الواقفون على التنظيم الداخلي (للبيمارستان) حتى يؤدي رسالته ويحقق الرعاية الصحية لمرضاه ، ومن خلال ما ورد في وثائق الأوقاف فإن العاملين في البيمارستان هم :

- **حكيم (البيمارستان)** : ويطلق على كل طبيب من الأطباء الجراحين والكحالين ، ومهمتهم مباشرة المرضى مجتمعين ومتناوبين ، والسؤال عن أحوالهم ، وما يجدّ على كل واحد منهم مما يتعلق بالمرض ، ويقررون ما يصلح لكل مريض من أدوية وشراب أو غذاء ، وقد

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١١٢ .

(٢) حجة وقف السلطان برسباي ، المؤرخة في ١٦ من جمادى الآخرة سنة ٨٣٧هـ ، رقم الوثيقة (٨٨٠ق) أوقاف . انظر : جدول فهرس الوثائق في نهاية هذه الدراسة .

(٣) الجزيري ، درر الفوائد ، ص ١٦٩ .

أوضحت حجة وقف الأشرف شعبان أن حكيم البيمارستان كان يتقاضى أكبر راتب عن بقية الموظفين به ، ولا يزيد عليه إلا أمير مكة فقط ، إذ حددت هذه الوثيقة راتبه بمبلغ ألفين وأربعمائة درهم سنوياً ، وذلك مقابل إشرافه على مرضاه وعلاجهم ومداواتهم من سائر الأمراض كالرمد والجراحة على العادة في مثل ذلك ، ولم يكن له عمل إداري آخر ، حتى يتفرغ لمهمته الأصلية وهي علاج المرضى .

- **الشاهدان** : مهمتهما الحضور يوميّا إلى البيمارستان ، لصرف ما يحتاج إليه المرضى ، وضبط ما به من حواصل ، وحددت الوثيقة راتبهما معاً بألف درهم سنوياً[1] .
- **أمين الحواصل** : مهمته توزيع الطعام والشراب على مرضى البيمارستان يوميّاً على عادة أمثاله ، وأقرت الوثيقة أجره السنوي بثلاثمائة وستين درهماً .
- **بواب البيمارستان** : مهمته تنظيم الدخول إليه ، ومنع الخارجين على الأنظمة من الاختفاء فيه ، وحددت الوثيقة سنوياً له ثلاثمائة وستين درهماً ، كما حددت مهامه قائلة : « ... على أن يتولى ما جرت به عادة أمثاله من غلق باب البيمارستان وفتحه وصونه عن أرباب التهم والفساد ... » .
- **سقاء البيمارستان** : نصت الوثيقة على أن مهمته سقي الماء العذب لمرضى البيمارستان مقابل مبلغ قدره سبعمائة وستون درهماً ، وهذا المبلغ على قسمين ، الأول عن المدة الأولى ، (المعينة أعلاه) ، ولم يوضح الواقف قصده بأعلاه ، وربما يشير إلى أنها مدة نهاية الحج وازدحام

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص١١٣ ، ١١٤ .

البيمارستان بالمرضى فيها أمر وارد ، لذا حدد لها ثلاثمائة درهم ، والثاني عن بقية السنة وراتب السقاء فيها أربعمائة وستون درهما .

- **الفراشون والفراشات** : حددت الوثيقة تعيين ثمانية من الفراشين والفراشات على أن تكون أعمالهم على أكمل وجه من أوجه الرعاية بمرضى البيمارستان ، وأوجبت « ... على كل واحد من الفراشين من الرجال والنسوة أن يتعاهد من بإزائه من المرضى ويقوم بمصالحهم في شربهم وأكلهم ، وغسل ما يحصل منهم من الأوساخ ، وتنظيفهم وملازمتهم على العادة » .

ولم تكتف الوثيقة بإلزامهم بما سبق من واجبات ، بل طلبت من كلّ منهم أن يتقي الله تعالى « ويعلم أنه رقيب عليه فيما هو لازم له من الخدمة » ، وقد سوى الواقف بين الرجال والنساء في الراتب ، فذكرت وثيقته أن للجميع ألفين وثمانمائة درهم توزع فيما بينهما مناصفة[1] .

- **ناظر البيمارستان** : وهي أهم وظيفة إدارية وتموينية ويتضح عظم مهمته من خلال ما أسند إليه من واجبات في الوثائق الوقفية ، ويطلق عليه ناظر البيمارستان[2] وشيخه ، وقد حددت وثيقة الأشرف شعبان أن يصرف للناظر على البيمارستان مبلغ خمسمائة درهم سنوياً للإنفاق عليه ، وعلى ما تقتضيه مصلحة المرضى ، وما يحتاجون إليه من سكّر ، وأدوية وأشربة وغيرها ، وما يحتاج إليه البيمارستان من مكانس وأسطال وقدور وغيرها بحيث يستمر نفعه على الدوام . وفي الختام

(١) المصدر السابق ، ص١١٢ ، ١١٣ .

(٢) ذكر ابن فهد أن الشريف حسن بن عجلان جعل النظارة على البيمارستان لولديه وقال : "وجعل النظر فيه - أي في البيمارستان - لولديه بركات وأحمد ، ينفردان بذلك مدة حياتهما لا يشركهما فيه شريك ، لا يتأول عليهما فيه متأول ، ويتصرفان في ذلك مجتمعين ومفترقين ، ومن بعدهما للأرشد فالأرشد من ذريته الذكور منهم دون الإناث من ولد الظهر دون البطن ..." . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٠٨ .

طلبت هذه الوثيقة من كل من له وظيفة بالبيمارستان أن يلازمها ويراقب الله تعالى ويخشاه .

وكانت نفقات البيمارستان كبيرة ، انعكست على مرضاه بالخير ، وكانت سبباً في تعجيل شفائهم ، وقد ضمنت الوثيقة احتياجاته السنوية من الحطب وزيت الزيتون للإضاءة ، وثمن اللحم للضعفاء والسكّر والأشربة والأدوية ونحوها ، فحددت ثلاثمائة درهم ثمن حطب يطبخ به الدقيق والسمن وغير ذلك مما يحتاج إليه المريض يوميّا ، وأربعمائة وخمسين درهماً في ثمن زيت الزيتون ، وما يقوم مقامه ليضاء به لمرضى البيمارستان سنوياً[(١)] .

وهناك وظائف ملحقة ومصاحبة لأمير ركب الحاج مثل الكحال[(٢)] والجرائحي ، وهو طبيب عارف ، وجرائحي حاذق يصرف لكل مريض من حجاج الركب ما يحتاج إليه من أدوية كالأشربة والعقاقير ، والبذورات والعطريات ، والأكحال والمراهم والأدهان ، وحين وصولهم إلى مكة ينضمون إلى البيمارستان ليقدموا خدماتهم التي تخص الرعاية الصحية لكل من يفد إليهم من حجاج وغيرهم ، والجرائحي المذكور كان له ركاب خاص به ، ويتبعه القباني الذي كان يزن الأعشاب والأدوية التي تخص المرضى ، وأيضاً البيطاري وهو طبيب الدواب والقائم على علاجها ، ويحمل معه آلاتها ونعالاتها على التكفية .

ومع اهتمام الواقفين بالمرضى وعلاجهم ورعايتهم ، فقد أولوا عناية بغسل وتكفين من مات منهم أو من غيرهم من المسلمين ، وأنشئت لذلك وظيفة تكفين الموتى ، وشرط القائم بها أن يكون ديناً ، أميناً ، موثوقاً به . ويصرف له الناظر ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بالبيمارستان من مرضى الرجال والنساء ، ويصرف كل متطلبات الميت من غسله وثمن كفنه وحنوطه ، وأجرة غاسله وحافر قبره ، ومواراته في قبره على السنة

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص١١٤- ١١٥

(٢) الجزيري ، درر الفوائد ، ص ١٥٧ .

النبوية ، والحالة المرضية ، ومن الوثائق التي جاء من أوجه صرفها : أكفان الموتى ، وثيقة الأشرف شعبان التي قررت مبلغ ألفي درهم سنوياً ، يشتري الناظر بألف درهم منها أكفاناً ، ويحملها صحبة الركب السلطاني إلى المدينة ، ويسلمها إلى الناظر على الحرم النبوي ، ومعها الألف درهم الأخرى لتكفين من يحتاج من موتى المسلمين ، ودفع كلفة غسلهم ودفنهم ، ومواراتهم في لحدهم أسوة بأمثالهم على الوجه الشرعي ، وثلاثة آلاف درهم سنوياً أخرى خصصت للغرض نفسه بمكة المكرمة ، نصفها لشراء الأكفان ، والآخر لنفقات غسل الميت ولحده[١] .

وقرّر أسنبغا الطياري لموتى المسلمين ما يكفي لتكفينهم حتى مواراتهم في قبورهم ، وجاء في حجة وقفه صرف ألفي درهم سنوياً في مصالح أهالي الحرمين الشريفين والفاضل منها يصرفها الناظر في أوجه البر ومنها تكفين أموات المسلمين الذين لا مال لهم وتجهيزهم حتى لحدهم[٢] .

٣ - توفير المياه في المدينتين المقدستين :

لعبت الأوقاف دوراً رئيسيًا في توفير الماء النقي لأهالي المدينتين والقادمين إليهما للمجاورة والحج والعمرة ، ويشكل نقص الماء مشكلة كبيرة في مكة على الخصوص وفي المدينة أيضاً لكن بدرجة أقل ، فالأمطار نادرة ، والآبار قليلة ، والطلب على الماء يكثر وخاصة في المواسم مع كثرة الوافدين .

ويتم التغلب على هذه المشكلة من خلال حفر الآبار ، وعمارة العيون ، وإنشاء البرك والخزانات ، وزيادة الأسبلة ، وفيما يلي أمثلة من الأوقاف التي أثرت في توفير المياه داخل المدينتين المقدستين وخارجهما .

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١٠٩

(٢) حجة وقف السيفي أسنبغا بن عبد الله الطياري ، رقم الوثيقة (٨٢) ، دار الوثائق القومية ، سطر رقم ٨٤ – ٨٥ .

أ - توفير المياه داخل المدينتين المقدستين :

- **مكة المكرمة** : تناولت يد الإصلاح في مكة توفير المياه من بعض البرك التي بها ، فهناك بركتان بسوق الليل تم إصلاحهما وتعميرهما في عهد السلطان الملك الناصر حسن سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٨م ، وبركة ماجن عند باب مكة ، فجرى ماؤها وعم النفع بها [١] .

وأنشأ السلطان برقوق حوضاً لسبيله عند باب المعلاة[٢] ، وأقام الخواجا أحمد بن علي المصري[٣] سبيلاً بالبستان الذي اشتراه من ورثة سعيد جبروه بالأبطح سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م[٤] ، وبنى بيرم خجا[٥] سبيلاً بالمعلاة عند وصوله إلى مكة لولاية نظر المسجد الحرام سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م وقد انتفع من أثره الناس جميعاً[٦] ، وقام جانبك الظاهري في سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ببناء بستان بمكة ، وحفر فيه عدة آبار وجعل له أوقافاً كبيرة بمكة[٧] ، وعُمِّرت فسقية[٨] الحاج الصغرى بباب المعلاة[٩] .

---

(١) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٣٩- ٣٤٠ ، ٣٤٨ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ٥١٠ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٣٤١ ، ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان ، ج١ ، ص ٨٨ .

(٣) هو : أحمد بن علي بن محمد الشهاب المصري ، ويعرف بالكواز ، مآثره كثيرة كإصلاح الحرم الشريف ، وعين حنين ، وسبيل الأبطح ، وكان جواداً كريماً يكرم من قدم إليه ، أو قصده ، وكان شاد بندر جدة . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٤٣ .

(٤) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٩٢ .

(٥) بيرم خجا بن قشتدى ، ولي نظر المسجد الحرام في أواخر سنة ٨٥٠هـ عوضاً عن الخواجا الظاهر ، وسمع على أبي الفتح المراغي في السنة التي بعدها ، وله بالمعلاة سبيل وحوض للبهائم ، عم النفع بهما ، مات بمكة في ظهر يوم الاثنين ١١ من صفر سنة ٨٦٠هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٢٢ برقم ١٠٨ .

(٦) النهروالي ، الإعلام ، ص ٣١٧ .

(٧) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٣١٧ .

(٨) الفسقية : هي الحوض المخصص للوضوء ، وهي لفظة لاتينية تطلق على فوارة المياه ، أو الغرفة تحت الأرض . الأرض . صالح لمعي ، التراث المعماري ، ص ١٦ .

(٩) الجزيري ، درر الفوائد ، ج١ ، ص ٧٤٧ .

وعندما وصل سنقر[١] الجمالي في ١٠ من رمضان سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م كان معه مرسوم لجانبك الظاهري بعمارة سبيل وميضأة[٢] وبعد هذا التاريخ بعامين بنى السلطان قايتباي بالمسعى سبيلاً كان من جملة منشآته الخيرية بمكة[٣] .

ومن الذين اهتموا بتوفير الماء في مكة السلطان الأشرف شعبان فقد عين مجموعة من السقائين لسقى الطائفين وغيرهم بالمسجد الحرام وخارجه .

وأنفق الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في رجب سنة ٧٤٨هـ/ ١٤٣٧م في عمارة عين جوبان مبلغ مائتي ألف درهم من مال الحرمين ، وفوض الأمير فارس الدين ، فأصلحها حتى جرى ماؤها[٤] .

وأشارت حجة وقف السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى الإنفاق في أوجه البر ، ومنها :تسبيل الماء وإطعام الجائعين وكسوة العرايا والمقلين ، وستر عورات الضعفاء ، والعاجزين من الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والمحتاجين والمجاورين والمقيمين بالحرمين الشريفين[٥] .

---

(١) هو : أبو السعادات الزيني مملوك ناظر الخواص الجمالي يوسف ، وشقيق شاهين الجمالي ، ترقى في الخدمة إلى أن صار شادا على عمائر السلطان قايتباي بمكة سنة ٨٧٤هـ ، ثم أضيف إليه الحسبة بمكة سنة ٨٨٣هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٢٧٣ ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ١٩٧ .

(٢) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٤٨٣ .

(٣) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٣١ ، العقد الثمين ، ج٨ ، ص ٣٣١ – ٣٣٢ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٨ ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٦٨ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٢٣٧ .

(٥) حجة وقف السلطان فرج بن برقوق ، رقم الوثيقة (٦٦) ، دار الوثائق القومية ، سطر ٥١٠ – ٥١١ – ٥١٢ ، وفي سنة ٨١٣هـ أرسل السلطان فرج بن برقوق للشريف حسن بن عجلان اثني عشر ألف مثقال من الذهب لصرفها على عمارة عين بازان ، فعين الشهاب بركات المكي ، وأمره بتفقدها ، وأصلح بركتين ، إحداهما عند سور المعلاة ، وعمر وأصلح مجاريها ، وجعل ماء العين تتدفق إلى البركتين . الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٣٩ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٤٨٢ .

وفي سنة ٨٢٠ هـ/١٤١٧م انتدب السلطان المؤيد شيخ[١] قائده علاء الدين لعمارة عين حنين ، وزوده بألفي مثقال ذهباً ، فعمرها ، ثم زاد في عمارتها ، فجرى الماء وزاد جريانه حتى بلغ البركة التي بأسفل مكة سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م[٢] .

- **المدينة المنورة** : المدينة تمتاز عن مكة بكثرة آبارها وعيونها ، فمدار شرب أهلها على الآبار وكثرة العيون ، وأسهمت الأوقاف بما تغله في زيادة تحسين آبارها وعيونها ، بتعميرها ، وتجديدها حتى يعظم نفعها ، وممن كان معنيّاً بذلك السلطان الأشرف قايتباي الذي أجرى ترميماً في عين الزرقاء بالمدينة على يد الخواجا شمس الدين بن الزمن[٣] ، وبإصلاحها جرى ماؤها إلى المدينة المنورة ، وتم ذلك في ٨٨٦هـ/١٤٨١م[٤] .

وعمّر أبو بكر بن مزهر[٥] رئيس ديوان الإنشاء بمصر ، في سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م فسقية متصلة بباب الرحمة ، وفوق هذه الفسقية قبة ، وعلى الجانب الأيمن منها فسقية للمياه[٦] .

وأشارت حجة وقف السلطان الغوري إلى أن يكون من أوجه الصرف بها : صرف عشرة دنانير من الذهب سنوياً ، أو ما يقوم مقامها من

---

(١) هو : المؤيد شيخ المحمودي الظاهري الجركسي ، تسلطن في مستهل شعبان يوم الاثنين سنة ٨١٥هـ ، ومات يوم الاثنين ٨ من محرم سنة ٨٢٤هـ . المقريزي ، السلوك ، ج٤ ق ٢ ، ص ٥٩٤ ، الخطط ، ج٢ ، ص ٢٤٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص ١٠٩ .

(٢) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٤٨ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٦٠ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ج١ ، ٧٠٣ .

(٣) هو : محمد بن عمر بن محمد بن عمر الزمن ، الخواجا الشمس بن السراج القرشي الدمشقي ، ثم القاهري الشافعي ، ويعرف بابن الزمن ، ولد في سنة ٨٢٤هـ بدمشق ، وأشرف على عمائر السلطان قايتباي بالحرمين الشريفين ، كما باشر بالمدينة النبوية سنة ٨٧٩هـ عمارة وترميم عين الزرقاء ، وسائر منشآت السلطان المذكور ، مات يوم الأحد ١٨ من شوال سنة ٨٩٧هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٨ ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ برقم ٧٠٣ .

(٤) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٥٥٤ ، ابن بطوطة ، رحلته ، ص ١١٦ ، الخياري ، تاريخ معالم المدينة المنورة ، ص ٢١٠ .

(٥) هو : أبو بكر بن محمد الزين بن البدر الأنصاري الدمشقي ، ويعرف بابن مزهر ، ولد سنة ٨٣١هـ ، ، زار مكة والمدينة المنورة وغيرهما واشتهر بوفرة الذكاء ، حج غير مرة ، وله سبيل بمكة ومدرسة ورباط بالمدينة المنورة ، وفاته سنة ٨٩٣هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٨٨ – ٨٩ .

(٦) أيوب صبري باشا ، مرآة جزيرة العرب ، ترجمة وتعليق ؛ أحمد فؤاد متولي ، (ط١ ، الرياض ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ج١ ، ص ٨٧٥ .

النقود في ثمن دوارق وأجرة من يتولى تزويدها بالماء وتسبيلها على الخاص والعام بالحرم الشريف المدني[١] .

وفي حجة وقف الزيني عبد الباسط تحديد صرف ثلاثين مثقالاً من الذهب سنوياً في مصالح السبيل المعروف بإنشاء الواقف المذكور بباب السلام بالمدينة النبوية الشريفة[٢] كما خصص قاني باي قرا الرماح أمير آخور كبير جامكية لشخصين يتوليان تسبيل الماء العذب بالحرم النبوي ، على أن يصرف لهما خمسة عشر ديناراً سنوياً مناصفة بينهما[٣] .

ب – توفير المياه خارج المدينتين المقدستين :

لم يغفل الواقفون توفير المياه خارج منطقة المدينتين المقدستين فامتدت أياديهم بأوقافهم الواسعة في تلبية هذا الغرض وتأمينه في أمكنة المشاعر المقدسة ، وسائر الطرق كالطريق الذي بين مكة والمدينة أو طريق ركب الحجاج إلى الحجاز ، فقاموا بإصلاح العيون وترميمها ، وحفر الآبار ، وتزويد الفساقي بالماء ، وكل ما يساعد على وفرة المياه للحجاج وغيرهم عبر هذه الطرق ، وممن أسهم في توفير المياه خارج مكة السلطان الأشرف شعبان الذي اهتم بوصول الماء للحجاج في عرفة ، وخصص مبلغ ألف درهم لعمارة الفساقي في عرفة وأجرة من يقوم بتنظيفها على عادة أمثاله ، كما خصص مبلغ ألفي درهم لصيانة وتنظيف عين الجوبانية وترميمها ، وأجرة من يقوم بنظافتها[٤] .

ومن آثار الأوقاف على هذا إجراء عين بازان ، فقد خصص على مصالحها السلطان برسباي ثلاثة أسهم من ريع أوقافه الواسعة ، وإجراء

---

(١) حجة وقف السلطان الغوري ، رقم الوثيقة (٨٨٢ق) أوقاف .

(٢) حجة وقف الزيني عبد الباسط ، رقم الوثيقة (١٨٩ج) أوقاف .

(٣) حجة وقف قاني باي قرا الرماح أمير آخور كبير ، رقم الوثيقة (١٠١٩ق) أوقاف ، قام بنشرها سامي أحمد عبد الحليم في رسالته للدكتوراه بعنوان : ((آثار الأمير قاني قرا باي الرماح)) ، جامعة القاهرة ،كلية الآثار ، ١٩٧٥م .
وهناك العديد من حجج الوقف التي خصصت ضمن أوجه صرفها : الصرف على تسبيل المياه داخل المدينة والمسجد النبوي الشريف منها : حجة وقف السيفي أيتمش بن عبد الله الظاهري ، رقم الوثيقة (١١٤٣ ق) أوقاف ، حجة وقف السيفي تغري بردي بن عبد الله الأحمدي ، رقم الوثيقة (١٥٢) ، دار الوثائق القومية ، حجة وقف السيفي أسنبغا الطياري ، رقم الوثيقة (٨٢) ، دار الوثائق القومية ، حجة وقف الطواشي محسن الإخميمي ، رقم الوثيقة (٣٣) ، دار الوثائق القومية ، حجة وقف السيفي دولات باي ، رقم الوثيقة (١٢٩) ، دار الوثائق القومية .

(٤) راشد القحطاني ، أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ١١٦ .

الماء منها إلى مكة المكرمة « على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده في مثلها ... »[١] وتاريخ هذه الوثيقة سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م .

وفي سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م بعث السلطان برسباى خمسة آلاف أشرفي على يد ابن المزلّق لتعمير عين عرفة حتى يعم نفعها[٢] ، وجرى على نسق السلطان المذكور كثير من السلاطين وغيرهم[٣] ، وقد خصص الجمالي يوسف ناظر الخواص الشريفة خمسين ديناراً من الذهب الظاهري سنوياً للعناية بفساقي عرفة وملئها « ... بالماء العذب وغيره في كلفة عوامل وعدة رجال في أثناء السنة لتكون مملوءة بالمياه عند قدوم الحاج للوقوف بعرفة ، يجهز الناظر على الواقف المبلغ المذكور ، ويرسله صحبة موثوق به ليسلمه لمن يعينه الناظر المتولي صرف ذلك في المصرف المعين فيه ، ويكون الإرسال في زمن مع السفر وملء الفساقي المذكورة فإن تعذر ملء الفساقي المذكورة يشترى بذلك ماء وينقل إلى عرفة ويسبل للحجاج يوم الوقوف بها بحيث يعم النفع به ... »[٤] .

وامتدت يد الإصلاح لتوفّر المياه بمنى[٥] ، وممن أسهم في ذلك نائب السلطنة بمصر الأمير آل ملك الجوكندار ففي سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ، عمّر بركة بطريق منى ، وهي معروفة ببركة أم السلم ، وأصلح القنوات

---

(١) حجة وقف السلطان برسباي ، رقم الوثيقة (٨٨٠ق) أوقاف ، ص ١٨٠ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١٠٢٨ - ١٠٣٠ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٩٠ ، ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان ، ج٣ ، ص ٤٠٣ .

(٣) وهؤلاء كان منهم السلطان جقمق الذي أرسل من قِبله بيرم خواجا في سنة ٨٥٢هـ لترميم عدة برك بطريق عرفة ، وقام بذلك فطهرها من التراب ، وأصلحها وساق الماء إليها من الآبار التي بقربها ليشرب منها الحجاج . السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٢٦٦ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ج١ ، ص ٧٣٧ ، النهروالي ، الإعلام ، ص ٣١٨ .

(٤) حجة وقف الجمالي أبي يوسف ناظر الخواص الشريفة ، المؤرخة في ٢ من ذي القعدة سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م ، رقم الوثيقة (١٠٥) محفظة (١٦) ، دار الوثائق القومية . انظر : جدول فهرس الوثائق في نهاية هذه الدراسة .

(٥) منى : تقع بين جبلين ، بينهما وبين مكة ثلاثة أميال ، وبها مسجد الخيف وكثير من الآبار ، تعمر أيام الموسم ، وتكون خالية بقية أيام السنة . القزويني ، أخبار البلاد وآثار العباد ، ص١٢٣ - ١٢٤ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٥٧ .

التي تصل إليها من منى ، وتولى مباشرتها نجم الدين بن خليفة الكيلاني[١] ، وانتفع بها الحجاج وعامة الناس[٢] .

وفي سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م أنشأ الخواجا شهاب الدين أحمد العاقل[٣] سبيلاً في بيته بمنى ، وسبَّل الماء فيه أيام التشريق .

وأنشأ الخواجا بدر الدين الظاهر[٤] سبيلاً في بيته بمنى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، وأنشأ أبو بكر الشمري[٥] في بيته بمنى سبيلاً[٦] .

وهدفت الأوقاف إلى توفير المياه في طريق الحج بين مكة والمدينة ، وفي الطريق البري بينهما وبين مصر والشام ، وممن أسهم في ذلك السلطان الأشرف شعبان الذي خصص لتوفير المياه في خليص[٧] مبلغ خمسمائة درهم لعمارة عين خليص وترميمها ، والفسقية وترميمها[٨] ، وقد قرّر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في حجته الثانية سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م خمسة آلاف درهم لإجراء الماء من العين إلى البركة ، وجعلها مقررة سنوياً لصاحب خليص فأجرى ماءها فوراً[٩] ، ونظراً لأهمية عين خليص وعذوبة مائها للحجاج ، فقد أمر السلطان قايتباي بإصلاحها سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م

---

(١) هو : خليفة بن محمود الكيلاني ، الملقب بنجم الدين إمام الحنابلة بالمسجد الحرام ، تولى إجراء عين بازان ، فضلاً عن إصلاحاته للقنوات وتعميره بركة أم السلم بمنى . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٣٢٠ .

(٢) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٣٨ ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ١٢٤ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٢٨٦ .

(٣) هو : أحمد بن علي بن محمد بن الشهاب المصري ، المعروف بالعاقل ، المجاور بمكة ، أنشأ بها داراً ، وبمنى أيضاً ، وفاته ٢٠ من رمضان سنة ٨٦٤هـ ودفن بالمعلاة بمكة . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٤٣ .

(٤) هو : بدر الدين بن حسن بن محمد الظاهر ، عمر عين حنين ، وكان متواضعا وخيراً ساكناً ، وفاته بمكة سنة ٨٧١هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٨ ، ص ١٩٠ .

(٥) أبو بكر الشمري ، تردد إلى بلاد كثيرة ، وأنشأ سبيلاً في بيته بمنى سنة ٨٥٠هـ ، وفاته في ربيع الأول سنة ٨٧٠هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١١ ، ص ١٠٠ .

(٦) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٢٠٠ .

(٧) خليص : واد على طريق حجاج مصر على أربع مراحل من مكة وبه الكثير من العيون والآبار ، وبه عين غزيرة غزيرة الماء . القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٦٠ ، الجزيري ، و درر الفوائد ، ج٢ ، ص ١٤٥٩ .

(٨) راشد القحطاني ، أوقاف الأشرف شعبان ، ص ١٣٠ .

(٩) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق ١ ، ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٦٠ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٦٥ .

بمبلغ ألف أشرفي على يد الأمير شاهين الجمالي[١] وأضاف السلطان الأشرف شعبان إلى أوقافه العديدة مبلغاً لإجراء ماء عين حنين ، وقد خصص لها مع خفارة الحجاج ألفي درهم لكل من مشايخ حنين الأربعة ، واشترط عليهم أن « ... يسقوا من العين المذكورة من يمر بهم ... » .

ولم ينس عين ودان[٢] ، فخصص لها عشرة آلاف درهم تصرف على على مصالحها ، وهي بطريق الحجاز الشريف .

وقد خصصت الوثيقة مبلغاً مماثلاً لمغارة شعيب[٣] مقابل من يسقي الماء وأجرة دلاء وبكر وسلب وغيرها ، بحيث يسقون الماء لمن يمر بهم من سائر الناس ، وخصصت أيضاً خمسة آلاف درهم سنوياً لمصالح البئر المعروفة بالروحاء[٤] ، وألف درهم سنوياً لمن يتولى تنظيفها ويسقي الماء منها .

ولتوفير الماء على طريق ركب الحاج المصري ، خصص لمصالح بئر عجرود[٥] ونخل[٦] ألفي درهم[٧] إضافة إلى ما كان يصرف لهما من غير وقف السلطان شعبان ، وهذا المبلغ مقابل عمارة الفساقي ، وأجرة من يتولى سقي الماء منها على أن يستمر ذلك في أثناء ذهاب الحجاج

---

(١) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ ، النهروالي ، الإعلام ، ص ٢٢٤ . والأمير شاهين الجمالي هو ناظر الخواص يوسف بن كاتب جكم ، ولد سنة ٨٣٨هـ تقريباً ، كان مقبلاً على العلم والقراءة فيه ، مآثره بمكة كثيرة كعمارة المسجد الحرام ، وعلو بئر زمزم ، ثم سقاية العباس ، وإجراء عين حنين ، وعمر منشآت قايتباي لمكتبي السبيل وغيرهما . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٢٩٣ برقم ١١٢٣ .

(٢) ودان : تقع أسفل الفرع ، وتبعد عن المدينة بحوالي ٢٥٠ كيلو متراً . أبو إسحاق الحربي ، كتاب المناسك ، ص ٤١٤ هامش ٢ .

(٣) مغارة شعيب : بها نخل وبساتين ومياه عذبة ، وتقع في وادي من أهم أودية شمال الحجاز ، ويمر بها الطريق بين حقل وتبوك . البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٣٥ ، سيد بكر ، الملامح الجغرافية ، ص ١٢٤ .

(٤) الروحاء : موضع قريب من المدينة من أعمال الفرع على بعد أربعين ميلاً من المدينة . الفيروزآبادي ، المغانم المطابة ، ص ١٦٠ .

(٥) عجرود : جنوب غرب السويس ، وتقع في شبه جزيرة سيناء . البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٣٣ .

(٦) نخل : أهم محطة في طريق الحاج المصري عبر شبه جزيرة سيناء . سيد بكر ، الملامح الجغرافية ، ص ١٠٨ .

(٧) راشد القحطاني ، أوقاف الأشرف شعبان ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

وعودتهم ، وعلى نمط هذه الوثيقة كانت هناك وثائق كثيرة خصصت من أوجه صرفها مبالغ سخية على مصالح هذه الآبار(١) .

وقام أهل الخير من السلاطين بتوفير سحابات تحمل الماء لإرواء العطشى في كل مكان ترحل فيه القافلة ، وأنفقوا عليها أموالاً طائلة . من ذلك ما وقفه السلطان برقوق ناحية بهتيت(٢) على سحابة تسير مع قافلة الحجيج إلى مكة المكرمة سنوياً ، ومعها جمال ومياه وشقادف ، وأكفان لمن يتوفى بالطريق من غير القادرين ، وكانت تصرف للحجاج ما يحتاجون إليه من الماء والزاد ذهاباً وإياباً(٣) وقد جعلت وثيقة السلطان السلطان فرج بن برقوق مصاريف ذلك من خلال توجيه جزء من ريع وقفها « ...ويجهزه الناظر في كل سنة صحبة الركب الشريف والمحمل السلطاني المتوجه إلى الحجاز الشريف صحبة ، من يوثق بدينه وخيره وعفته وأمانته وكفايته ، والذي يصرف ذلك بطول الطريق ذهاباً وإياباً على المنقطعين من الحجاج الذين قاربوا الإشراف على الهلاك من المسلمين ، في أجرة حمل ، وإطعام طعام ، وإسقاء ماء ، وكلفة ما يكون في ذلك إبقاء لمهجهم وحفاظاً لأبدانهم في إيصالهم إلى مأمنهم على العادة ، ويصرف ذلك عليهم بمباشرة من يكون متصفاً بصفات العدالة والخير والعفة والديانة ، ويصرف لمن يباشر ذلك ممن هو بالصفات المشروطة من الجعالة ما يراه الناظر ، وذلك بمباشرة أمير الحاج ، واطلاعه على ذلك ، فإن فضل من ذلك شيء فرقه بالحرمين المذكورين ، فإن تعذر صرف ذلك على المنقطعين ، فرق على الفقراء والمساكين والأيتام

---

(١) من ذلك حجة وقف عبد اللطيف المنصوري ، رقم الوثيقة (٧١) ، دار الوثائق القومية ، وضمن عناية الواقفين بتوفير المياه لحجاج بيت الله الحرام على الطرق البرية والبحرية كانت حجة وقف الجمالي أبي المحاسن ، فقد جعل مبلغ أربعة وعشرين ديناراً من الذهب في كلفة نقل الماء إلى السبيل الكائن ببندر الينبوع ، وكان محسوباً ضمن مبراته الخيرية في البندر المذكور ، حجة وقف الجمالي أبي المحاسن ، رقم الوثيقة (١٠٥) ، دار الوثائق القومية ، سطر ٤٠٨ .

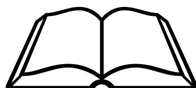
(٢) بهتيت : قرية من قرى الجيزة القديمة بمصر . المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ٩٤٤ حاشية ١ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ٩٤٤ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص ١٠٨- ١٠٩ .

والضعفاء والعاجزين بالحرمين المذكورين أو بأحدهما إن تعذر الآخر ... »[(١)] .

وسحابة السلطان الغوري أيضاً كانت لسقيا الفقراء بطريق الحاج ، وتتحرك بتحرك الحجيج في مكة وأمكنة المشاعر والمدينة المنورة ، وتستمر هذه السحابة في كل سنة ، وكانت تجهز من ريع وقفه سنوياً[(٢)] .

ووقف السلطان طومان باي سحابة مرافقة لركب الحاج المصري تسقي الحجاج في مكة والمدينة وأمكنة المشاعر في منى وعرفة ، واستمرت هذه السحابة في مرافقته للحجاج سنوياً في ذهابهم وإيابهم[(٣)] وقد استمرت الأموال الموقوفة تدعم هذا الغرض وتعضده حتى أواخر العصر المملوكي ، واستمرت كذلك خلال العصر العثماني[(٤)] .



(١) وثيقة وقف السلطان فرج بن برقوق رقم (٦٦) محفظة (١١) ، دار الوثائق القومية .

(٢) حجة وقف السلطان قانصوة الغوري ، مؤرخة في أول ربيع سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م ، رقم الوثيقة (٨٧٢) أوقاف .

(٣) الإسحاقي ، محمد بن عبد المعطي ، ت ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م ، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول ، مطبعة المليجي ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٤) دار الوثائق القومية ، سجلات الروزنامه ، دفتر إيرادات ومصاريف خزانة مصر المحروسة ، واجب سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م فقد ذكرت سجلات الروزنامة والحجج الشرعية بأرشيف الدفتر خانه بوزارة الأوقاف ، والحجج الصادرة من المحكمة العليا والصالحية مصروفات السحابة وأسماء الواقفين والتي استمرت طوال العصر العثماني . علي مبارك ، الخطط ، ج١ ، ص ١٥١ .